الفصل السادس

قصص الحيوان فى القرآن الكريم وعند المفسرين

جاء فى القرآن الكريم كثير من الآيات عن الحيوان بعضها لبيان منافعه (١) وبعضها لبيان العبرة فيه (٢) وبعضها يضرب به المثل (٣) وبعضها أحكام تتعلق بالحيوان (٤) وبعضها لابطال عقائد وعادات قديمة تتعلق بالحيوان لايقرها الاسلام (٥) وجاء بعضها بيانا لمعجزات بعض الرسل عليهم الصلاة والسلام (٦) .

وزاد المفسرون عليها أحيانا ، وهذا أهمها :

١ — بقرة بنى إسرائيل .

قصة البقرة وردت فى السورة المسماة باسمها وتلك هى الآيات « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزواً . قال

---

(١) كقوله تعالى فى سورة النحل « والأنعام خلقها » الى قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » من آية ٥ الى آية ٨ . وكثير غيرها

(٢) كما ورد فى سورة النحل والمؤمنون « وإن لكم فى الأنعام لعبرة » وآيات أخرى

(٣) كما جاء فى سورة الجمعة « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » وغيرها .

(٤) كآيات المائدة فى تحريم بعضه وإحلال الطيبات منه .

(٥) كآية المائدة : « ما جعل الله من بحيرة » إلى آخرها . وآيات الأنعام .

(٦) ومعجزات الرسل عليهم السلام ونحوها كناقة صالح . وانقلاب العصا حية لموسى وتسخير الطير لسليمان وعلمه بمنطقه وخدمته له . وبقرة بنى إسرائيل

أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى . قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ، تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ، إن البقر تشابه علينا . وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها . قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » . آيات (٦٧ — ٧٤) .

والقصة بين موسى وقومه . ولكن البقرة تحتل أظهر مكان فيها ، فقد كانت مثار استنكار اليهود عندما أمرهم بذبحها . وظنوه يهزأ بهم . فلما رأوا الجد فى قوله طلبوا منه ملحين أن يبين لهم حالها وصفتها ، فقال عن ربه : « إنها بقرة لافارض ولا بكر » وأمرهم أن يفعلوا ما أمروا به ؛ فسألوا عن اللون ، فأخبرهم به . ثم كرروا السؤال الأول وطلبوا أن يبين الله لهم « ماهى » فقال لهم إنها بقرة غير ذلول ، لاتعمل فى إثارة الأرض ولا سقيها ، وأنها خالية من العيوب ، ومن أى علامة فى جلدها ؛ « قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » . والآيتان بعد ذلك (٧٢ و ٧٣) تبينان سبب ذبح البقرة والغاية من هذا الذبح .

وقد تكفل التفسير ببيان ذلك كله جاء فى تفسير البيضاوى بعد الآيات الأولى : أول هذه القصة قوله تعالى « وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها » وإنما فكت عنه — أى فكت القصة عن أولها — وقدمت عليه لاستقلالها بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء بالأمر ، والاستقصاء فى السؤال . وترك المسارعة إلى الامتثال » .

وأما القصة فهى : « أنه كان فيهم شيخ موسر ، فقتل ابنه بنو أخيه طمعا فى ميراثه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاءوا يطالبون بدمه ؛ فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله ؛ فأكثروا من السؤال عن البقرة ، حتى إذا حصلوا على البقرة المنعوتة ذبحوها ، وما كادوا يفعلون : لتطويلهم ، وكثرة مراجعاتهم ، أو لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل أو لغلاء ثمنها » . : « روى أن شيخا صالحا منهم كان له عجلة ، فأتى بها الغيضة وقال : اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر . فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات ، فساوموها من اليتيم وأمه ، حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير . فلما انتهت سؤالاتهم ، وانقطعت تعللاتهم ، ذبحوها وضربوه ببعضها ، أى بعض كان : وقيل بأصغريها ، وقيل بلسانها ، وقيل بفخذها اليمنى ، وقيل بالأذن ، وقيل بالعجب ، فحيى وأخبرهم بقاتله.

وزاد البيضاوى عند التفسير (١) فقال : « ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداء ، وشرط فيه ماشرط ، لما فيه من معنى التقرب وأداء الواجب ، ونفع اليتيم ، والتنبيه على بركة التوكل ، والشفقة على الأولاد ، وإن من حق الطالب أن يقدم قربة ، والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالى بثمنه ..... وأن المؤثر فى الحقيقة هو الله تعالى ، والأسباب أمارات لا أثر لها ، وإن من أراد أن يعرف أعدى عدوه ، الساعى فى إماتته الموت الحقيقى ، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه ، التى هى القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا ، ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر ، غير مذللة فى طلب الدنيا ، مسلمة عن دنسها ، لاسمة بها من مقابحها ، بحيث يصل أثره إلى نفسه ، فتحيا حياة طيبة وتعرب عما به ينكشف الحال ، ويرتفع مابين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع » .

---

(١) جـ ١ ص ٢٥

فإذا اعتبرنا هذه القصة قصة حيوانية فذلك لأهمية الحيوان فيها وأنه صاحب دور واضح فى سياقها وفى عدد آياتها وحكمان من مواضع العبرة والمعجزة .

٢ — ناقة صالح

وهذه معجزة أساسها الحيوان اختارها الله تعالى ليؤيد بها صالحا عليه السلام عندما دعا قومه إلى الله ، وذكرهم بنعمه ، وجاء بمعجزته وقال : « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب : فعقروها ، فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا به برحمة منا ومن خزى يومئذ : إن ربك هو القوى العزيز » (١)

وفى سورة الشعراء — قال هذه ناقة لها شرب يوم معلوم (٢) وفى سورة القمر « إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » . (٣)

تلك هى معجزة صالح عليه السلام ، قص الله حديثها فى القرآن مختصرا ، لم يقصد به تفصيلا ولا تسلية ، وانما قصد به موضع العبرة التى تتجلى فى إخبار الرسول عليه السلام بما أصاب المرسلين قبله من تكذيب ، وبصبرهم على ما كذبوا ، وبعاقبة الصابرين والمكذبين . لكن قصة الناقة فى كتب التفسير قصة لطيفة ، هى أظهر جزء فى قصة صالح عليه السلام . فقد أرسل إلى ثمود بالحجر بين الحجاز والشام ، روى أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم ، وكثروا ، وعمروا أعمارا طوالا . لا تفى بها الأبنية ، فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى خصب وسعة ، فعتوا وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأصنام ؛ فبعث الله إليهم صالحا من أشرافهم ، فأنذرهم ، فسألوه آية

---

(١) سورة هود من ٦٤ — ٦٦ (٢) ١٥٥ (٣) ٢٧

فقال نذعر فمن استجيب له اتبع . فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم ، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها « الكاثبة » وقال له : أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة على خلقة الجمل جوفاء وبراء فإن فعلت صدقناك . فأخذ عليهم صالح مواثيقهم . لئن فعلت ذلك لتؤمنن ؟ فقالوا نعم . فصلى ودعا ربه ، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا . وهم ينظرون . ثم نتجت ولداً مثلها فى العظم ، فآمن به جندع فى جماعة . ومنع الباقين من الإيمان ذؤاب بن عمرو ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صفر كاهنهم . فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا يوما بعد يوم ، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تنفج (١) فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم . فيشربون ويدخرون .

وكانت تطيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه ، وتشتوا ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم ، وزينت عقرها لهم عنيزة أم غنم ، وصدقة بنت المختار ، فعقروها واقتسموا لحمها ، فرقى سقبها جبلا اسمه « قارة » فرغا ثلاثا ، فقال صالح لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب . فلم يقدروا عليه ؛ إذ انفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها . فقال لهم صالح : تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وبعد غد محمرة ، واليوم الثالث مسودة ، ثم يصبحكم العذاب . فلما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه ، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين ، ولما كانت ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فقطعت قلوبهم فهلكوا .

هذه قصة أخرى زاد عليها المفسرون ، وكانت الناقة وابنها أوضح شىء فى هذه الزيادة . ولا أدرى مصدرها الأول . ومن المستبعد أن تكون

---

(١) تمشى مباعدة بين رجليها

من عمل الاسرائيلين ؛ إذ أن صالحا عليه السلام نبي عربي وليس من بني اسرائيل . ويقول « رودويل » Rodwell في تعليقه على القصة في سورة الأعراف: « إنه نبي عربي لم يذكر إلا في كتاب محمد » ـ عليه الصلاة السلام .

على أن نسبته إلى اليهود أو النصارى كانت ظنا ظنه « موير » « Muir وحسبه مبشرا يهوديا أو مسيحيا ـ وقيل إنه Shelah المذكور في سفر التكوين (أصحاح ١١ آية ١٢) لأن أعماله ومخاطراته تشبه ماذكره القرآن .

وقد ظن « رودويل » أيضا أن الاسم « ربما كان مأخوذا من اسم ميتو شالح Methushaleh الذي جاء عن صلاحه كلام في مدراش » .

تلك خلاصة ما قاله « رودويل » في تعليقه على القصة [1] . وليس في نفي الجنسية العربية عنه إلا شبهة جاءت من تشابه اسمه مع هذين الاسمين . لكن نسبة شيلاه إلى أرفخشاذ في التوراة تختلف عما قاله البيضاوي في صالح إذ قال عنه أنه صالح بن عبيد بن آسف . ومكان بعثته في بلاد الحجر وإرساله إلى قبيلة ثمود العربية يبعد أن يكون غير عربي . وأرجح أن تكون قصة ناقته عربية مثله أيضا .

٣ ـ قصة الفيل والطير الأبابيل :

ظهر الفيل في تاريخ العرب والإسلام . وكانت له حادثة أرخوا بها . وولد صلى الله عليه وسلم عام الفيل « ٥٧١ م » . ونزلت في أصحاب الفيل سورة من سور القرآن الكريم ، « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . »

وقصة الفيل لها أصل تاريخي ، لم يأت القرآن به ولا بتفصيلها ، واكتفى بموضع

---

(١) يرى بعض المفسرين آراء أخرى في هذه القصة

العبرة ، ثم إن المشركين كانوا قريبي عهد بها ، وكان بعض من عاصرها لايزال حيا . والحق أنها قصة لطيفة [١] كان للفيل فيها بطولة ظاهرة ، وأثر فى طرافتها عظيم ، وخلاصتها : أن أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ، بنى كنيسة فى صنعاء وأنفق عليها كثيرا ، وأراد أن يصرف العرب إليها عن مكة . وقيل إن بعض العرب فعل فيها ما أغضب أبرهة فحلف ليهدمن الكعبة . فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود واثنا عشر فيلا غيره ، وقيل كان معه ألف فيل . فلما بلغ « المغمس » [٢] أرسل جماعة من جيشه فساقوا إبلا فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم . ورأت قريش وكنانة وهذيل أنهم لا طاقة لهم بحرب أبرهة . وبعث أبرهة إلى سيد هذا البلد وشريفه يخبره أنه لم يأت محاربا ، وأنه جاء لهدم الكعبة . وأمر أن يحضر إليه . فانطلق عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى أبرهة ، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم وأعظمهم . فأجله أبرهة وأكرمه وأعظمه وقال لترجمانه قل له : ماحاجتك ؟ فقال عبد المطلب : أن ترد الإبل . فأنكر ذلك أبرهة وقال له : تكلمنى فى الإبل وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمنى فيه ! فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . فرد عليه الإبل ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة الباب :

لاهم إن المرء يمنع حله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

---

(١) الكشاف جـ ٢ سورة الفيل . بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢٥١
(٢) اسم مكان قريب من مكة على طريق الطائف

جروا جميع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
فانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

وترك عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعث الجبال فتحرزوا فيها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وعبى جيشه وكان اسم الفيل محمودا ، فلما وجهوه إلى مكة قام إلى جانبه رجل من خثعم فأخذ بأذنه وقال له : ابرك محمود ، وارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل ، فضربوه ليقوم فأبى ، وألحوا عليه بالضرب فلم يتجه إلى مكة ، وكلما وجهوه إلى جهة أخرى سار مسرعا .

وقد أرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانىء نحو قفين ، مخططة بحمرة كالجزع الظفارى ، فكان الحجر يسقط على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ، ففروا ، وهلكوا فى كل طريق منهل . وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون . وانفلت وزيره أبو يكسوم ، وطائره يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشى ، فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه .

وأعظمت العرب قريشا وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم وكفاهم مئونة عدوهم ! وقيل فى ذلك أشعار كثيرة . فقال أمية بن أبى الصلت :

إن آيات ربنا ثاقبات لايمارى بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

وقال أبو قيس صيفى بن الأسلت :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكمو منه بلاء مصدق غداة أتى يكسوم هادى الكتائب
كتيبته بالسهم تمشى ورجله على القاذفات فى رءوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب إلى أهله ملحبش غير عصائب .

والحق أن الطير الأبابيل لا تقل بطولة عن الفيل فى هذه القصة ، ولكنه استأثر بنسبة القصة إليه لضخامة جثته وعظيم مروءته ، واحتماله الأذى عندما أبى أن يتقدم إلى مكة .

٤ النملة والهدهد .

ونتنقل بعد ذلك إلى قصة حيوانين وردا فى سورة النمل فى قصة سليمان عليه السلام : أولهما النملة ، وثانيهما الهدهد ، جاء عن منطق الطير والنملة والهدهد حوالى صفحة فى القرآن الكريم من الآية (٦ إلى الآية ٢٩) فى سورة النمل ، وهى موجزة تكتفى بما يؤدى إلى الغاية . فان سليمان عليه السلام علم منطق الطير ، وقال « إن هذا لهو الفضل المبين » . ولما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والانس والطير خافت النملة أن يحطمهم هو وجنوده ، فدعت النمل أن يدخلوا مساكنهم . فتبسم سليمان عليه السلام ضاحكا من قولها وسأل ربه أن يلهمه شكر النعمة ، وأن يوفقه إلى العمل الصالح ، وأن يدخله برحمته فى عباده الصالحين

وتفقد الطير ، فلما لم ير الهدهد توعده ، إلا أن يأتيه بسلطان مبين . فجاءه بخبر ملكة سبأ وعظمتها ، وأنها تعبد الشمس من دون الله هى وقومها ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم ؛ والأجدر بهم أن يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض . فأرسله سليمان عليه السلام بكتاب إلى ملكة سبأ ؛ قال له « اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » .

هنا يكثر التفسير من الحديث عن منطق الطير الذى علمه سليمان :

جاء فى الكشاف : « والذى علمه سليمان من منطق الطير هو مايفهم بعضه عن بعض من معانيه وأغراضه . وحكى أنه مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه : أتدرون مايقول ؟ قالوا الله ونبيه أعلم . قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء . وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاوس فقال : يقول : كما تدين تدان . وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين . وصاح طيطوى فقال : يقول . كل حى ميت ، وكل جديد بال . وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه . وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه . وصاح قمرى فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى . وقال: الحدأ يقول: كل شىء هالك إلا الله ، والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين . والنسر يقول : يا بن آدم عش ماشئت آخرك الموت . والعقاب يقول : فى البعد من الناس أنس . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس .

ويلاحظ أنه قد جاء من منطق الطير فى هذه الأسطر حكم تشبه حكم سليمان ، فكأن القائلين أدركوا ماعرف به سليمان عليه السلام فأنطقوا الطير بشبيه أمثاله . وقد راعوا فى بعض هذه الأمثال أن يتفق فى صوته مع صوت الطير الذى ينطق به ، كما فى منطق الحدأة والديك : وراعوا فى بعضها أن تكون حكمته من جنس ماعرف عن ذلك الطير من خصائص . فالنسر طويل الأجل يتحدث عن غاية كل حى مهما طال أجله ، والعقاب التى تتخذ مساكنها فى عالى القلل تنصح بالبعد عن الناس .

وأما النملة فلم يكثروا من القول عنها ، ويظهر أنها لم تستحق ذلك لصغرها وإليك بعض ماقيل .

جاء فى روح المعانى للألوسى(١) : « وروى أن سليمان عليه السلام لما سمع

---

(١) ج ١٩ ص ١٧٩

قول النملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم إلى آخره ، فقال إيتونى بها فأتوا بها فقال لم حذرت النمل ظلمى ؟ أما علمت أنى نبى عدل ؟ فلم قالت : لا يحطمنكم سليمان وجنوده . فقالت أما سمعت قوله : « وهم لا يشعرون » . ومع ذلك إنى لم أرد حطم النفوس . وإنما أردت حطم القلوب ، خشيت أن يروا ما أنعم الله تعالى به عليك من الجاه والملك العظيم ، فيقعوا فى كفران النعم ، فلا أقل من أن يشتغلوا بالنظر إليك عن التسبيح . فقال لها سليمان عظينى . فقالت أعلمت لم سمى أبوك داود ؟ قال لا . قالت لأنه داوى جراحة قلبه . وهل تدرى لم سميت سليمان ؟ قال لا . قالت لأنك سليم القلب والصدر . ثم قالت أتدرى لم سخر الله تعالى لك الريح . قال : لا . قالت أخبرك الله تعالى بذلك أن الدنيا كلها ريح ، فمن اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح . ويعلق الألوسى على ذلك بقوله : « وهذا ظاهر الوضع كما لا يخفى ، وفيه ما يشبه كلام الصوفية ، والله تعالى أعلم بصحة ما روى من أنها أهدت اليه نبقة فدعا للنمل بالبركة »

أما أن هذه القصة ظاهرة الوضع فواضح من سؤال النملة له عن الأسماء ، واشتقاقها من هذه الاسماء العبرية أفعالا عربية ، وصفات فيها مدح لداود عليه السلام وابنه سليمان . والقصة كلها تدل على أن ذلك من باب الصناعة اللفظية وظهر فى عصر يسود فيه البديع ، فإذا ذكر داود أو سليمان أسرع الذهن إلى التعليل السابق ؛ فكأنه من عمل الصوفية أو من عمل اللغويين . ثم أن هذه التسمية تكون عند الميلاد . فكيف عرف عند مولد داود أنه سيداوى جراحة قلبه . وكيف عرف مثل ذلك عند مولد سليمان؟[1] وتعليل تسخير الريح غريب حقا .

وقد رأيت قصة النملة فى دائرة المعارف اليهودية [2] . وجاء فيها : وفى يوم

---

(١) قد يكون ذلك للتفاؤل والرجاء ولكن النملة تقول ذلك على سبيل التقرير

(٢) Solomon ج ١١ ص ٤٣٩ The gewish Ency.

من الأيام امتلأ سليمان عجبا بعظمته وحكمته ، وعوقب على ذلك بأن هز الريح البساط فوقع من فوقه أربعون ألف رجل ، فوبخ سليمان الريح لما فعلت ، لكن الريح وعظته قائلة : إن الملك يجب أن يعمل صالحا ويتجه إلى الله ، ويبتعد عن العجب . فخجل سليمان من قولها جدا .

وفى يوم آخر كان يمر فوق واد مملوء بالنمل فسمع نملة تقول : ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم جنود سليمان . فسألها سليمان عن السبب فى قولها ، فقالت إنها خافت أن ينظر النمل إلى جنود سليمان ، وقد يصرفهم ذلك عن شكر الله فيهلكهم . ثم قالت إنها ملكة النمل . لهذا أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم فأراد سليمان أن يسألها سؤالا فقالت له : لا يليق بالسائل أن يكون أعلى والمسئول أسفل ؛ فرفعها من بطن الوادى عندئذ ؛ فقالت له : ليس من اللائق أن يجلس هو على بساط وهى على الأرض . فجعلها على يده . ثم سألها : أهناك على الأرض من هو أعظم منى؟ فقالت له : إنها أعظم منه كثيرا ؛ وإلا ما أرسله الله اليها ليحملها على يده . فغضب عندئذ غضبا شديدا وألقاها قائلا : ألا تعلمين من أنا ! فأجابته : أعلم أنك مخلوق من نطفة مذرة فليس من اللائق أن تكون معجبا . فامتلأ سليمان خجلا وخر على وجهه .

ونلاحظ أن القصة المنقولة عن كتب التفسير ترفع من شأن سليمان وتتحدث عنه بما يليق برسول .

والقصة اليهودية قد جعلت النملة واعظة تهديه الى التواضع وتبعده من الكبر ، وقد أفلحت فيما أرادت . وليس هناك فرق كبير بينهما بعد ذلك .

وأما الهدهد فله عند المفسرين حديث طويل . يقول الزمخشرى[1] وذكر من قصة الهدهد أن سليمان عليه السلام حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره ، فوافى الحرم وأقام به ماشاء . وكان يقرب كل يوم طول مقامه

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٤١

بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغذى ويصلى ، فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقنه ـ القناقن البصير بالماء فى حفر القنى ـ وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة ، فيجىء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ، ويستخرجون الماء : فتفقده لذلك » .

وحين نزل سليمان ، حلق الهدهد ، فرأى هدهدا واقعا ، فانحط اليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شىء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف ، وذهب معه لينظر ، فما رجع الا بعد العصر . وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان ، فنظر فاذا موضع الهدهد خال ، فدعا عفريت الطير وهو النسر ، فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب ، على به : فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته ، فناشدها الله ، وقال : بحق الذى قواك وأقدرك على إلا رحمتنى ! فتركته وقالت : ثكلتك أمك إن نبى الله قد حلف ليعذبنك ! قال : وما استثنى ؟ قالت بلى ، قال : أو ليأتينى بعذر مبين. فلما قرب من سليمان أرخى ذيله وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا له . فما دنا منه أخذ برأسه ، فمده اليه فقال يانبىّ الله : اذكر وقوفك بين يدى الله ، فارتعد سليمان وعفا عنه .

ثم أخبره الهدهد ماسمع من صاحبه ، فكتب اليه سليمان عليه السلام كتابا يدعو بلقيس إلى الإسلام .

يروى أن نسخة الكتاب : من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ .

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فلا تعلوا على وأتونى مسلمين .

وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لايطيلون ولا يكثرون .

وطبع الكتاب بالمسك ، وختمه بخاتمه ، فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب ؛ وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة الباب ، وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية ، وقيل نقرها فانتبهت فزعة ، وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها . وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميرى ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ماقالت .

إن القرآن خال من التفاصيل التى جاءت فى الشرح . وفيها أشياء ينكرها العقل كالمبالغة فى ملك بلقيس . ولو أحصينا جنودها لضاقت بهم جزيرة العرب جميعها (١٢٠٠٠٠٠ فى ١٠٠٠٠٠ = ١٢٠٠ مليون جندى وأين النساء والأطفال ؟ وأين طعام هؤلاء جميعا ؟ ومساكنهم ؟ الى آخره)

ويظهر أن الناحية الدينية حملت ناقلى القصة على أن يجعلوا سليمان يحج البيت الحرام .

لكنها قصة جميلة من قصص المبالغات والعجائب . ويعلق البيضاوى على ذلك فيقول « ولعل فى عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها » .

٥ — غراب ابنى آدم

وهذه قصة من قصص الحيران جاء بها القرآن الكريم عن ابنى آدم ؛ فقد قربا قربانا فتقبل من احدهما زرعه وهو هابيل ؛ ولم يتقبل من أحدهما ضرعه وهو قابيل . فحسد أخاه وقتله « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ! فأصبح من النادمين » .

أى أنه لما قتله تحير فى أمره . ولم يدر مايصنع به إذ كان أول ميت من بنى آدم ؛ فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره

ورجليه ثم ألقاه فى الحفرة .

وظاهر من القصة فى القرآن وفى التفسير أن الحيوان كان فيها معلما ومرشدا، وقد نقلها ابن الطفيل فى حى بن يقظان عندما عجز «حى» عن دفن الظبية واهتدى بغرابين .

٦ — حية آدم :

وتأتى قصة لم يشر إليها القرآن أية إشارة وهى قصة الحية التى قيل إن ابليس تشكل بشكلها، أو دخل فى جوفها إلى الجنة ليغوى آدم عليه السلام . وقد جاء فى كتب التفسير كثير من الأقوال يهمنا منها قصة الحية . وإليك ما يقوله محمد بن جرير الطبرى عنها (١) قال بسنده عن وهب بن منبه : —

« لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة متشعب بعضها فى بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم . وهى الثمرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته . فلما أراد ابليس أن يستنزلها دخل فى جوف الحية، وكان للحية أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها ابليس ، فأخذ من الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته . فجاء به إلى حواء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة ؛ ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ! فأخذت حواء فأكلت منها ثم ذهبت إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فأكل منها . فبدت لهما سوءاتهما . فدخل آدم فى جوف الشجرة ، فناداه ربه يا آدم : أين أنت ؟ قال أنا هنا يارب . قال ألا تخرج، قال أستحيي منك يارب . قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكا ـ قال ولم يكن فى الجنة ولا فى الأرض شجر كان أفضل من الطلح والسدر ـ ثم قال ياحواء أنت التى غررت عبدى ؛ فانك لا تحملين

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٨٦

حملا إلا حملته كرها ، فإذ أردت أن تضعى مافى بطنك أشرفت على الموت مرارا . وقال للحية : أنت التى دخل اللعون فى جوفك حتى غر عبدى ، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك فى بطنك ولا يكن لك رزق إلا التراب ، أنت عدوة بنى آدم وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه وحيث لقيك شدخ رأسك .

والذى يرجع الى التوراة فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين (١) يرى أن الله خلق الحيوان وأسكنه الجنة مع آدم ، وأن آدم هو الذى سمى كل حيوان باسمه ، ثم خلق له حواء من أحد اضلاعه ، وأنه أباح له اشجار الجنة يأكل منها الا شجرة معرفة الخير والشر ، نهاه عنها . وكانت الحية أمهر الحيوان فقالت لحواء : إنك ان أكلت من شجرة المعرفة فلن تموتى ؛ والله يعلم أنك فى اليوم الذى تأكلين فيه منها تتفتح عيناك ، وتعرفين الخير والشر . فلما رأت حواء جمال الشجرة وحسن منظرها . وأن عاقبة الأكل منها حكمة ومعرفة . أكلت من ثمرها ، وأعطت زوجها . فتفتحت أعينهما وأدركا أنهما عاريان ، فخاطا بعض أوراق التين لتسترهما ، ونادى الله آدم فاستخفى منه ، واستحيا لأنه عار . فقال الله وكيف عرفت أنك عار ؟ أأكلت من الشجرة التى نهيتك عنها ؟ فأجابه آدم بأن المرأة التى خلقها له هى التى أطعمته من ثمر هذه الشجرة . وقالت حواء ان الحية هى التى خدعتها حتى أكلت . فقال الله للحية : عليك اللعنة من بين البهائم والوحوش ، وقضيت عليك أن تمشى على بطنك ، وأن يكون طعامك التراب طول عمرك ؛ وسأجعل العداوة دائمة بينك وبين المرأة وبين ذريتكما ، وقضيت أن يشدخ رأسك ابن آدم وأن تلدغى عقبه ؛ وقضى على المرأة أن تكثر أحزانها وحملها وان تضع حملها فى ألم ، وأن يكون الرجل سيدا عليها .

---

(١) من ١ - ١٩ .

وقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية [١] « ان الشيطان أراد بآدم الشر واختار الحية أداة له ؛ لا لأنها أمهر الحيوانات فقط بل لأنها شبيهة جدا بالإنسان . وكان لها يدان ورجلان مثله » . ولما اقتنع الحية بالدخول فى جوفها وأغرى آدم وحواء « عوقبت الحية بأن فقدت يديها ورجليها » [٢]

وقد نقل الفخر الرازى [٣] قصة شبيهة بالتى نقلها الطبرى وعلق عليها بقوله « وأعلم أن هذا وأمثاله مما يجب ألا يلتفت اليه ، لأن ابليس لو قدر على الدخول فى فم الحية ، فلمَ لمْ يقدر أن يجعل نفسه حية ثم يدخل الجنة ! ولأنه لما فعل ذلك بالحية ، فلم عوقبت مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة » !

وليس أدل على أن هذه القصة إسرائيلية من عباراتها كما رواها الطبرى حتى لتكاد تلمح فيها الترجمة الحرفية .

وقد كانت قصة الحية معروفة قبل الاسلام ونقلها عدى بن زيد شعراً . وذكر الجاحظ عن أمية أنه ذكر رطوبة الحجارة وأن كل شىء قد كان ينطق . ثم خبر عن مناداة الديك الغراب واشتراط الحمامة على نوح وغير ذلك مما يؤيد ما قلناه ، ثم ذكر الحية وشأن ابليس وشأنها ثم قال :

فان قلت إن أمية كان أعرابيا وكان بدويا وهذا من خرافات أعراب الجاهلية ؛ وزعمت أن أمية لم يأخذ ذلك عن أهل الكتاب ، فانى سأنشدك لعدى ابن زيد [٤] وكان نصرانيا ديانا وترجمانا وصاحب كتب ، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر .

قال عدى بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته وكيف أغراه الشيطان

---

(١) ج ١ ص ١٧٩ Book of Adam

(٢) كتاب آدم المرجع نفسه (٣) ج ١ ص ٤٦٥ .

(٤) ترجمته فى الأغانى ج ٢ طبعة دار الكتب

وكيف دخل فى الحية، وأن الحية كانت فى صورة جمل فمسخها الله عقوبة لها حين طاوعت عدوه على وليه ، فقال :

قضى لستة أيام خليقته ... وكان آخرها أن صور الرجلا
دعاه آدم صوتا فاستجاب له ... بنفخة الروح فى الجسم الذى جبلا[1]
ثمت أورثه الفردوس يعمرها ... وزوجه صنعة من ضلعه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدة ... من شجر طيب ان شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت ... كما ترى ناقة فى الخلق أو جملا
فعمدا للتى عن أكلها نُهيا ... بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا[2]
كلاهما خاط إذ بُزا لبوسهما ... من ورق التين ثوبا لم يكن غزلا
فلاطها[3] الله إذ أغوت خليفته ... طول الليالى ولم يجعل لها أجلا[4]
تمشى على بطنها فى الدهر ماعمرت ... والترب تأكله حزناً وإن سهلا

وأورد أبياتا عما أصاب آدم وحواء من الجوع والأوصاب والعلل ، وانهما أوتيا الملك والأنجيل، ثم جاء بما روى كعب الاحبار من أنه مكتوب فى التوراة أن حواء عوقبت عند ذلك بعشر خصال وأن آدم لما أطاع حواء وعصى ربه عوقب بعشر خصال وأن الحية التى دخل فيها إبليس عوقبت بعشر خصال .

وأورد هذه الخصال العشرة فى حالة كل من هؤلاء الثلاثة .

طابع قصص الحيوان عند مفسرى القرآن :

نزل القرآن باسان عربى مبين ليبين للناس أصول دينهم ويبصرهم بما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة . وكانت القصة بعض ما اشتمل عليه . وماورد

---

(١) جبل أى خلق (٢) لم تأخذ حذرها
(٣) ألصقها (٤) إشارة الى مايزعمون من أن الحية لاتموت الا بما يعرض لها من قتل ونحوه .

من هذه القصص فى القرآن تركك للأسئلة مجالا . ذلك أن القرآن كان يكتفى من هذه القصص بما سيقت من أجله كالموعظة والعبرة . أما التفاصيل فلم يكن يوردها . ولكن حب الاستطلاع غريزة ، وازغبة فى الاستقصاء كثيرا ماتدعو إلى التساؤل عند سماع هذه القصص أو قراءتها . فاذا سمعوا « ناقة صالح » رغبوا فى معرفة نوعها ، وإذا سمعوا « وادى النمل » أرادوا أن يعرفوا مكان هذا الوادى - وكذلك هدية بلقيس إلى سليمان ومنطق الطير وبساط الريح ، وهكذا فى بقية القصص التى تثير الأسئلة وكان الذى يستطيع الإجابة على أسئلتهم أهل الكتاب : لما فى التوراة من قصص شبيهة بهذه القصص : ولما للتوراة من شروح وتعليقات . ولما أضيف اليها من أساطير . وقد أسلم بعض أهل الكتاب ووجدوا فى التوراة وشروحها وما أضيف اليها معينا يستطيعون أن يرجعوا إليه للاجابة على مثل الأسئلة المتقدمة . ولم يكن هؤلاء اليهود على حظ كبير من التحرى والدقة وتمحيص ما يروون . فسرى إلى المفسرين عن طريقهم كثير من الاسرائيليات التى امتلأت بها كتب التفاسير فى مثل هذه القصص التى جاء بها القرآن . وقد ذكر ابن خلدون (١) فى المقدمة

« إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم . وانما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تشوق اليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ؛ ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك الا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية . فلما أسلموا بقوا على ماكان عندهم ، مما

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٣

لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم ، وأمثال ذلك . وهؤلاء مثل كعب الأحبار[١] ووهب بن منبه[٢] وعبد الله بن سلام وأمثالهم . فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم . وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الأحكام ، فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ؛ ويتساهل المفسرون في مثل ذلك . وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات . واصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية . ولا تحقيق عندهم بمعرفة ماينقلونه من ذلك ؛ إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة ، فتلقيت بالقبول من يومئذ .

ويشير بعد ذلك الى عمل المفسرين المحققين من أمثال ابن عطية والقرطبي ، ويمدح تفسير الكشاف الزمخشري من أهل خوارزم .

ويؤيد كلام ابن خلدون أني قرأت تفسير قصة سليمان في سورة النمل ، في كتاب جامع البيان لابن جرير الطبري (من ص ٨٩ الى ص ١٠٥ ج ١٩) فوجدت اسم وهب بن منبه يتردد أكثر من خمس عشرة مرة : وجاء في تفسير القصة أيضا اسم عبد الله بن سلام ، كما تردد اسمهم جميعا في قصص أخرى ، ويضاف إلى هذا التأييد ماقدمته من موازنة بين قصة آدم في تفسير الطبري وفي التوراة ، وما جاء في دائرة المعارف اليهودية في وصف الحية . وكذلك قصة النملة في التفسير وفيما نقلته عن دائرة المعارف اليهودية .

---

(١) كعب الأحبار : هو يهودي من اليمن أسلم بعد وفاة الرسول وتسرب منه كثير من أخبار اليهود الى المسلمين ، مات بالشام سنة ٤٤

(٢) وهب بن منبه : من أهل الكتاب كان له معرفة بأخبار الأوائل وقصة الخلق والأنبياء . وكان يقول قرأت من كتب الله اثنين وثلاثين كتابا ! الخ ، مات سنة ١١٠ بعد ماعمر تسعين عاما .

بل إن من هذه القصص التى أوردوها مالا يليق بكرامة الرسل ، ومنها قصص أوردها الزمخشرى فى تفسير سورة « ص » فى قصة داود وسليمان وأنكر أن تكون صحيحة . وقد رأيت لهاتين القصتين أصلا نقلته دائرة المعارف اليهودية عن بعض كتب اليهود . ولكنها لاتتصل بالموضوع الذى نحن فيه .

ويظهر أنه كان هناك من القصاص من لايتورع عن نقل هذه القصص وروايتها ، ويحدثون العوام بذلك فى المساجد ، فأنكر عليهم المفكرون من الصالحين والعلماء حتى رووا « أن على بن أبى طالب طردهم من المساجد واستثنى الحسن البصرى لتحريه الصدق » [1]

---

(١) فجر الاسلام ص ١٩٢

الفصل السابع

قصص الحيوان فى الأمثال

ليس عندنا دليل على أقدم خرافة عربية لامن شكل الخرافة ولا من معانيها . وإنما عندنا طائفة من الخرافات رويت عن الأدب الجاهلى لاندرى إن كانت من أسلوب الجاهليين ووضعهم أم من عمل الرواة، إذ أنه كان للرواة عمل كبير فى تدوين الأدب الجاهلى حتى ما كان منه عصيا على الوضع وهو الشعر . أما النثر المنسوب إلى الجاهليين فاحتمال الوضع فيه أو روايته بمعناه ، أقوى ، وأسلوب الأخبار غالبا من عمل المتأخرين من الرواة ، والحقائق من عمل الأقدمين . ولا تخلو هذه الأخبار من أمثال تحتفظ بشكلها الأول ؛ أو من محاورة تدعو إلى احتفاظ بترتيب الجمل ، أو من جمل مترابطة تحتم طبيعتها أن تبقى متماسكة على مر العصور .

وقد جاءت فى كتب الأدب العربى طائفة من قصص الحيوان متفرقة فى مواضع مختلفة ، بعضها مع الأمثال لتفسيرها ، وبعضها مستقل وله مغزى أولا مغزى له ، وبعضها عربى ، وبعضها منقول ، ولكنها قليلة لايجمعها كتاب واحد مثل المجموع فى « كليلة » أو الصادح والباغم مثلا .

وكنت أود أن أكتبها تحت عنوان « طائفة من قصص الحيوان » ولكنى آثرت العنوان السابق لأن القصص المتصلة بأمثال أكثر من غيرها فى هذا الباب ، وهى جميعا خرافات ذات مغزى . فاذا استثنينا قصة الضبع التى حاورها أبو زياد الكلابى ، وقصة أبى العنبس وحماره ، كان العنوان شاملا .

وهـــذ هى :

١ — قصة الضبع والثعلب والضب .

أو قصة المثل « فى بيته يؤتى الحكم »

يقول الميدانى [١] : هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم ، قالوا : « إن الأرنب التقطت ثمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضب . فقالت الأرنب : يا أبا الحسل [٢] فقال : سميعا دعوت . قالت : أتيناك لنختصم إليك . قال : عادلا حكمتما . قالت : فاخرج إلينا . قال : فى بيته يؤتى الحكم . قالت : إنى وجدت ثمرة . قال : حلوة فكليها . قالت : فاختلسها الثعلب . قال : لنفسه بغى الخير . قالت : فلطمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمنى . قال : حر انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . »

« فذهبت أقواله كلها أمثالا . »

وهذه القصة موضوعة لغاية خلقية ، فهى من قصص المواعظ وليس من الضرورى أن تكون الأخلاق التى فيها مسلمة أو عامة . فإن الثعلب عندما بغى لنفسه الخير كان معتديا ، ولكنها فى الوقت نفسه تشير إلى نوع من الأخلاق أشبه بأخلاق البادية فيه شىء من استخدام القوة والايمان بها . ثم إنها تجرى على نمط من الايجاز يمثل حكم أكثم بن صيفى . ونستطيع عندئذ أن ننسبها إلى الجاهليين ويمكن أن تنقل من عصر إلى عصر من غير أن يدخلها كثير من التغيير .

وقد رأيتها فى أمثال الميدانى (٣) غير منسوبة إلى عصر ، لكن روايته لها تفهم أنها جاهلية عندما قدم لها بقوله : « هذا مما زعمت العرب عن

---

(١) ج ٢ صفحة ١٣

(٢) الحسل : ولد الضب حين يخرج من بيضه .

(٣) ج ٢ صفحة ١٣

ألسن البهائم » . وقد أورد بعدها قصة تشبهها فى الحوار والايجاز لا فى المغزى الخلقى ـ عن خالد بن الوليد، وتشبيه قصة خالد بن الوليد بهذه القصة يرجح أن هذه أصل ، وقصة خالد بعدها . وخالد من أبطال المسلمين فى الصدر الأول .

ثم ان هذه القصة تروى فى الوسيط [1] فى الكلام عن تاريخ الأدب الجاهلى . وهى منقولة هناك عن الميدانى ، وذكرها فى الأدب الجاهلى يدل على أن صاحبى الكتاب رحمهما الله رأيا فيها مايرجح نسبتها إلى الجاهليين . وقد رويت فى كتاب العقد الفريد فى كتاب « الجوهرة فى الأمثال » تحت عنوان : « أمثال رويتها العلماء » كما يأتى :

« خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة فقال : « يا أهل الكوفة انى وجدت مثلى ومثلكم كالضبع والثعلب : أتيا الضب فى جحره فقالا : أباجميل قال : أجبتكما . قالا : جئناك نختصم . قال : فى بيته يؤتى الحكم . قالت الضبع : فتحت عينى . قال : فعل النساء فعلت . قالت : فلقطت تمرة . قال : حلوا جنيت . قالت : فاختطفها ثعالة . قال على نفسه بغى . قالت : فلطمته اطمة . قال : حقا قضيت . قالت : فلطمنى أخرى . قال : كان حرا فانتصر قالت : فاحكم الآن بيننا . قال : حدث امرأة حديثين وإن لم تفهم فأربعة . »[2]

والذى يوازن بين ماروى فى العقد الفريد على لسان النعمان بن بشير ، وما روى فى الأمثال « مما زعمته العرب عن ألسن البهائم » يرى اختلافا قليلا بينهما . فالضبع هنا ، لا الأرنب ، هى التى خاصمت الثعلب ، وقد ناديا

---

(١) صفحة ١٧ طبعة ٤

(٢) ج ٣ صفحة ٥٩ . رويت فى كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ٢١٢ ورويت فى أول فاكهة الخلفاء ص ٤ بالمطبعة البهية بمصر

الضب : أبا جميل ـ لعلها تحريف « أبا حسل » ـ وقد وجدت تمره ـ بالتاء المثناه ـ لا ثمرة ـ بالمثلثة ولعلها أنسب للجواب لما فى التمر من الحلاوة . وقد نسب « البغى » إلى الثعلب فى قصة النعمان . وختام القصة هنا وهو « حدث امرأة حديثين » الى آخره ، غير موجود هناك ولا مفهوم هنا . (١)

ونحن نعرف أن النعمان كان شاعرا لا حكيما ولا قصصيا ، ونرجح أنه ساقها استشهادا ، ولهذا نرجح أن تكون جاهلية أيضا .

والموازنة بين القصتين فى الأمثال والعقد تؤكد ماقلناه من أن مثل هذه القصص النثرية التى تأتى حوارا ، فى جمل قصيرة يضرب بها المثل ، يلحقها من التغيير أقل مما يلحق غيرها من القصص النثرية المرسلة . ولكنها على كل حال لاتستعصى على هذا التغيير والتحوير . وهى قصة جمعت عناصر الموعظة ففيها حيوان يتكلم ويحتفظ بطباعه ، ولكنه يضرب الأمثال ويضع القواعد الخلقية (٢) .

٢ ـ قصة ذات الصفا

وهذا مثل آخر له قصة وهو : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » يقول عنه الميدانى : (٣)

« أصل هذا المثل على ما حكته العرب على لسان الحية ـ أن أخوين كانا فى إبل لهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد

---

(١) نقل ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء عن أبى هلال العسكرى تفسيرا لها وهو « إن لم تفهم حديثين كان ممن لايفهم أربعة أقرب » وهو تفسير لاتؤدى اليه الألفاظ .

(٢) رويت فى الأغانى جـ ٤ صفحة ١٥ رواية مخالفة لهاتين الروايتين قليلا .

(٣) الأمثال جـ ٢ صفحة ٦١

فقال أحدهما للآخر : يافلان ، لو أنى أتيت هذا الوادى المكلى، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها ! فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لايهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ؟ قال : فوالله لأفعلن. فهبط الوادى ،ورعى به إبله زمانا ، ثم ان الحية نهشته فقتلته . فقال أخوه : والله مافى الحياة بعد أخى خير ، فلأطلبن الحية ، ولأقتلنها أو لأتبعن أخى . فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ، فقالت الحية له : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلح فأدعك بهذا الوادى ، تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارا مابقيت؟ قال:أو فاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : إنى أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق لايضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالا . ثم انه ذكر أخاه فقال : كيف ينتفعنى العيش وأنا انظر الى قاتل أخى ! فعمد إلى فأس فأخذها ، ثم قعدلها فمرت به فتبعها ، فضربها فاخطأها ودخلت الجحر ، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شرها وندم . فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ماكنا عليه ؟ فقالت : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك» يضرب لمن لايفى بالعهد . وهذا من مشاهير أمثال العرب .

قال نابغة بنى ذبيان :

وانى لألقى من ذوى الغى منهمو ... وما أصبحت تشكو من الشجو ساهره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وكانت تريه المال غبا وظاهره[1]
فلما رأى أن ثمر الله ماله ... وأثل موجودا ، وسدّ مفاقره[2]
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة من المعاول باتره[3]

---

(١) ذات الصفا : الحية .

(٢) المفاقر « وجوه الفقر ، وسد مفاقره ، أغناه .

(٣) الغراب : الحد . المذكرة :من جيد الحديد .

فقام لها من فوق حجر مشيم ... لبقبال ، أو تخطى الكف بادره (١)
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللشرعين لاتغمض ناظره
فقال : تعالى نجعل الله بيننا ... على مالنا ، أو تنجزى لىَ آخره
فقالت : يمينُ الله أفعل ، إننى ... رأيتك مشئوما ، يمينك فاجره
أبى لى قبر لايزال مقابلى ... وضربة فأس فوق رأسى فاقرهُ (٢)

وقد رواها الجاحظ وبين سبب قول الشعر (٣)

والقصة شعرا ونثرا ، من قصص المواعظ ؛ فلها غاية خلقية والحيوان بطل من أبطالها، وهى جاهلية . ولست أرى فيها ولا فى الموعظة السابقة أثرا للنقل؛ لأن صورتهما بدوية ومسرحهما بدوى أيضا . وأرى أن النابغة قد عرف هذه القصة بالبادية فنظمها فى عتابه لبنى مُرة .

٣ ــ الذئب والشاة

ومن أمثال العرب أيضا : « أظلم من ذئب »(٤)

يقول الميدانى . قد كثر القول فى أمثال العرب ، وأشعار الشعراء بظلم الذئب فقالوا فى أمثالهم : من استرعى الذئب ظلم ، ومستودع الذئب أظلم . وكافأه مكافأة الذئب

---

(١) البادرة أى اللحمة بين المنكب والعنق .

(٢) فاقرة أى داهية ، أو واصلة الى العظم .

(٣) وقصة هذا الشعر قد وردت فى الخزانة (ص ٥٥٦ بولاق) وخمسة دواوين العرب ٤٧ والشعراء ٢٢ والمحاسن والمساوى (٢ : ١٣٤) والدميرى (١ : ٤١٦) ومروج الذهب (٢ : ١٢٩) وهى ما وضعه العرب على ألسنة الحيوان وقد جاء الأستاذ عبد السلام هارون بالروايات كلها فى تحقيقـــه ، وفى رواية الميدانى للشعر شىء من الاضطراب وغموض المعنى وهى فى الجاحظ أوضح . ج ٤ صفحة ٢٠٣

(٤) أمثال الميدانى ج ١ صفحة ٣٠٢ ، جمهرة الأمثال على هامشه ج ٢ ص ٥٧

وأما ماجاء فى أشعارهم فحكى ابن الأعرابى ، أن أعرابيا ربى بالبادية ذئبا ، فلما شب افترس سخلة له ، فقال الأعرابى :

فرَسْت شويهتى وفجعت طفلا ... ونسوانا وأنت لهم ربيب
نشأت مع السخال وأنت طفل ... فما أدراك أن أباك ذيب [1]
إذا كان الطباع طباع سوء ... فليس بمصلح طبعا أديب

وقال آخر :

وأنت كذئب السوء إذ قال مرة ... لعمروسة ، والذئب غرثان مرمل [2]
أأنت التى من غير جرم سبيتنى ... فقالت : متى ذا ؟ قال : ذا عام أول
فقالت : ولدت العام ، بل رمت ظلمنا ... فدونك كلنى ، لاهنا لك مأكل

وهاتان قصتان لاقصة واحدة إحداهما تبين « مكافأة الذئب » والثانية تبين حجة القوى وانتماسه أوهى الأعذار للغدر .

وقد جاء الجاحظ بالقصة الأولى [3] فقال : « وقد كان بعض الأعراب ربى جرو ذئب حتى شب ، وظن أنه يكون أغنى غناء من الكلب ، وأقوى على الذب عن الماشية . فلما قوى شيئا وثب على شاة فذبحها وكذلك يصنع الذئب ، ثم أكل منها . فلما أبصر الرجل أمره قال :

أكلت شويهتى وربيت فينا ... فمن أنباك أن أباك ذيب

« وقد أنكر أناس من أصحابنا هذا الحديث ، وقال : لم يكن ليألفه ويقيم معه بعد أن اشتد عظمه ، ولم يذهب مع الذئاب والضباع ، ولم تكن البادية أحب اليه من الحاضرة ، والقفار أحب اليه من المواضع المأنوسة » وقصة الجاحظ أطول شيئا ما . وهى تبين اختلاف الرواة فى القصة

---

(١) السخال : جمع سخل وهو ولد الشاة .
(٢) عمروسه : نعجه . غرثان : جائع . مرمل : نافد الزاد .
(٣) الحيوان ج ٦ صفحه ٧ طبعه الساسي

الواحدة ، وقد لحق التغيير فيها كلا من الشعر والنثر ، مع الاحتفاظ بمحور القصة وهو : « الطبع يغلب التطبع » .

ولكن الشعر الذى رواه الميدانى ، وروى الجاحظ بيتا واحدا منه تبدو عليه الجدة والحداثة ؛ فختام القصة بالمغزى الشعرى عمل لا نعهده فى الجاهلية وكلمة «أديب» أحدث من هذا العصر ، وكلمة « الطبع والطباع » لم يكثر استعمالها إلا فى العصر العباسى . ولا ينفى هذا أن تكون الفكرة معروفة عند العرب ، فنحن نبنى الشك فى جاهليتها على الألفاظ والصياغة لا على المعنى

أما القصة الثانية فظاهر من الشعر أنها جاءت فى معرض التدليل أو التشبيه ، ولكنها استوفت أجزاءها ، وهى أيضا قصة وعظية ، وان كان الوعظ فيها مضمنا لا مستقلا .

وهاتان القصتان من القصص الشائعة فى الأمم المختلفة فى القديم والحديث ولا يعرف مصدرهما الأول .

٤ — مجير أم عامر

وشبيه بهذه الخرافة ما يحكى عند ذكر المثل « كمجير أم عامر »[1]

« كان من حديثه أن قوما خرجوا إلى الصيد فى يوم حار ، فانهم لكذلك إذ عرضت لهم أم عامر . وهى الضبع ، فطردوها ، وأتعبتهم حتى ألجئوها إلى خباء أعرابى فاقتحمته ، فخرج إليهم الأعرابى وقال : ماشأنكم ؟ قالوا : صيدنا وطريدتنا . فقال : كلا ، والذى نفسى بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيفى بيدى . قال ، فرجعوا وتركوه . وقام إلى لقحة فحلبها ، وماء فقرب منها ، فأقبلت تلغ مرة فى هذا ، ومرة فى هذا ؛ حتى عاشت واستراحت . فبينما الأعرابى نائم فى جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه ، وشربت دمه ، وتركته . فجاء ابن عم له يطلبه ، فاذا هو بقير فى بيته ، فالتفت إلى موضع

---

(١) أمثال الميدانى ج ٢ ص ٦

الضبع فلم يرها ، فقال : صاحبتى والله! فأخذ قوسه وكنانته واتبعها ،فلم يزل حتى أدركها فقتلها ، وأنشأ يقول :

ومن يصنع المعروف مع غير أهله ... يلاقى الذى لاقى مجير أمّ عامر
أدام لها حين استجارت بقربه ... لها ، محض ألبان اللقاح الدرائر(١)
وأسمنها ، حتى إذا ماتكاملت ... فرته بأنياب لهـا وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من ... بدا يصنع المعروف فى غير شاكر

ولم يذكر الميدانى الزمن الذى قيلت فيه ، وإن دل سياق القصة على أنها بدوية جاهلية ، وفيها من أخلاق العرب حماية الجار ، واكرام الضيف والأخذ بالثأر وترى المغزى الخلقى مضمنا فى ثنايا القصة مصرحا به فى البيت الأخير

أما الشعر فأرجح أنه مصنوع ، وأنه عباسى ، فهو ضعيف ، لتكرار كلمة «لها» فى البيت الثانى ؛ و«هذا جزاء من بدا يصنع المعروف» ليس فيه روح الشعر ولا نظمه ، وكلمة « بدا » قلقة فى موضعها ، يحس قارئها أنها جاءت لتكملة الوزن ، وكلمة « من » فى آخر الشطر الأول قلقة فى هذا الموضع غير مألوفة فى الشعر القوى ، وهى خالية من موسيقى الشعر أيضا .

ثم إن انتهاء الأبيات بالمغزى صورة من العمل العلمى الذى يصل إلى النتيجة العامة من الأمثلة الجزئية ، وقد عرف العرب ذلك فى عصور متأخرة عن الجاهلية .

(٥) قصة الثعلب والعنقود .

ومن أمثالهم أيضا : « أعجز من ثعالة عن العنقود » ؛ وأعجز عن الشيء من الثعلب عن العنقود .

فأصل ذلك أن العرب تزعم أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلم ينله فقال هذا حامض .

---

(١) اللقاح ، جمع لقحة ـ الدرائر ، جمع درور ، وهى الناقة كثيرة الدر وهو اللبن

وحكى الشاعر ذلك فقال :

أيهـــا العائب سـلمى أنت عندى كشعاله
رام عنقودا فلما أبصر العنقود طاله
قال هـذا حامض لما رأى ألا ينـاله

أما المثل فظاهر أنه جاهلى . وأما الشعر فإسـلامى ؛ وربما رجح ذلك قول الميدانى : « وحكى الشاعر ذلك » . ثم أن النظم نفسه شبيه بنظم الحكايات الذى بدأه أبان اللاحقى . ونحو هـذه القصص عرف فى مرحلة متأخرة ، زمن العباسيين الذين أكثروا من الأبحر القصيرة ، كمجزوء الخفيف واستخدموها فى نظم الحكايات والمواعظ .

وأحس من قراءة هـذه القصص أن الأصـل فيها هى الأمثال ، وأن القصص ثانوية بالنسبة لها ، ثم أن هذه بعض القصص شعرٌ ونثرٌ معا . وقد يكون مؤلفهما واحدا ، وقد يختلف كما فى قصة المثل « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » فصاحب الأبيات هناك هو النابغة الذبيانى » . ولا شك فى جاهلية هذه القصص ولـكن الصيغة الأدبية التى بدت فيها تأثرت فى خلال الزمن حتى ظفرت بالتدوين ، فاستقرت على النحو الذى وصلت به الينا .

وتلك عادة فيما يعتمد فى نقله على الحافظة ، إلا إذا اجتمع على نقله جماعة يؤمن تواطؤهم على الـكذب . وقل أن يظفر بذلك أثر أدبى خال من صبغة الدين .

أمثال لقمان

وفى أمثال لقمان قصص حيوانية ذات مغزى ـ وقد جاءت فى القرآن الـكريم سـورة باسم « لقمان » وتحدث المفسرون عنه كما تحدثت كتب الأمثال أيضا ، وأشير اليه وإلى نـوره فى الشعر والنثر .

أما الشخصية التى يشير إليها القرآن فشخصية كريمة (١) فقد آتاه الله الحكمة ، وكانت موعظته لابنه ، مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالحساب وعلى صالح الأعمال .

وفى التفسير إضافات كثيرة إلى شخصيته ، وتجمع كلها على أنه كان حكيما وان اختلفت فى نسبه ؛ وفى عمره ، وفى رسالته ، وفى جنسيته ، ويغلب على أقوال المفسرين أنه كان عبداً ، وأنه كان حكيما لانبيا ، وأنه كان من بنى اسرائيل فى زمن داود عليه السلام .

ومما نسب إليه من الحكم قوله : « الصمت حكمة وقليل فاعله » . ويقول ياقوت فى معجم البلدان فى مادة طبرية : وفى شرقى بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه ، وله فى اليمن قبر . والله أعلم بالصحيح منهما » . ويروى بعضهم حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سادة السودان أربعة . لقمان والنجاشى وبلال ومهجع » .

وقد جاء فى سيرة ابن هشام (٢) أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى سويد ابن صامت ودعاه إلى الله وإلى السلام : فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ، قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علىّ فعرضها عليه ، فقال له : ان هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه إلى الاسلام فلم يبعد منه وقال : إن هذا لقول حسن . »

وكل ماجاء عن لقمان فيما تقدم يكبره ويرفع من شأنه كما رفع الله من قدره فى القرآن . ولكن بعض الأمثال التى وردت فى الميدانى تشير إلى لقمان بما يخالف ماتقدم .

---

(١) سورة لقمان آيات (١٢ ، ١٣ ، ١٦ — ١٩)
(٢) ج ١ ص ٢٦٥ من شرح الروض الأنف .

جاء عنه : « آكل من لقمان » .

يعنون لقمان العادى - من عاد - زعموا أنه كان يتغدى بجزور ويتعشى بجزور ، وهذا من أكاذيب العرب (١)

وجاء عنه أيضا عند المثل : « احدى حظيات لقمان » أنه لقمان بن عاد ، وتصوره القصة طامعا معتديا (٢) .

أما قصته عند المثل : « صغراهن شراهن » (٣) والمثل « طال الأبد على لبد » (٤). فتقول انه ابن عاد أيضا والقصة عند هذا المثل عن الميدانى : أن « لبد » آخر نسور لقمان بن عاد ، وكان لقمان قد عُمِّر عمر سبعة أنسر ، وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله فى جوبة - نقرة - فى الجبل الذى هو فى أصله فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر ، فاذا مات أخذ آخر مكانه ، حتى هلكت كلها إلا السابع ، أخذه فوضعه فى ذلك الموضع وسماه « لبد » ، وكان أطولها عمرا . فضربت العرب به المثل .

ويتبين مما تقدم أن هناك لقمانين : أحدهما الذى يتصل بالقرآن وهو الحكيم ، والثانى العربى ، وهو ابن عاد .

ولعل الأول منهما هو المقصود فى كتب الأمثال التى نسبت الى هذا الاسم . أما اسمه فيقول عنه « دير نبورج Derenbourg فى كتابه خرافات لقمان الحكيم (١٨٥) إنه هو « بلعام Balaam » (٥) ومعنى الكلمتين الملتهم » - أصلهما لقم وبلع - ويقول ان الخرافات المنسوبة اليه متأخرة وأنها من أصل يونانى .

وقد طبعت الأمثال المنسوبة اليه فى باريس سنة ١٨٤٧ باللغة العربية

---

(١) الميدانى ج١ ص ٥٦ (٢) المصدر نفسه ص ٢٣

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٩ (٤) شراهن أى شرهن

(٥) بلعام : نبى أو شخصية دينية فى الكتاب المقدس

وجاء فى المقدمة : انها كتبت لغرض تعليمى وأنه ليس لها قيمة أدبية كبيرة، وليست عينا من عيون الأدب العربى القديم ، وانما تعد كتابا ابتدائيا لتعليم الفرنسيين لغة العرب .

وهى إحدى وأربعون خرافة قصيرة جدا ، والمغزى فى آخرها ،وبعضها فيه ضعف ، ومن قصصها : (أسد وثعلب ص ١٠)

« أسد مرة ، اشتد عليه حر الشمس ، فدخل إلى بعض المغائر يتظلل بها فلما ربض أتى إليه جرذ يمشى على ظهره ، فوثب قائما ، فنظر يمينا ويسارا وهو خائف مرعوب ، فنظره الثعلب فتضحك عليه ، فقال له الأسد ، ليس من الجرذ خوفى وانما كبر على احتقارى .

هذا معناه أن الهوان على العاقل أشد من الموت .

وأسلوب هذه القصة واضح العجمة ، كأول كلمتين فيها ، وكلمة «تضحك» وقد يصل المغزى الخلقى الى مايقرب من طول القصة ، كقصة « البطن والرجلان » (ص٢٨) .فالقصة فى أربعة أسطر ونصف والمغزى فى سطرين ونصف وأكثرها عن الحيوان .

وتعتبر خرافات لقمان الحكيم مصدرا من مصادر لافونتين .

قصص منقولة :

رأينا فى بعض الأساطير الحيوانية أثر النقل عن أهل الكتاب ، من ذلك أسطورة « طوق الحمامة » ، «وحذر الغراب» ، وهديل الحمام » و « شبه السنور بالأسد » . وسنرى فيما يأتى أثر هذا النقل فى الخرافات .

نقل ابن عبدربه فى العقد الفريد فى (كتاب الجوهرة فى الامثال)تحت عنوان « مثل فى الرياء » .(١)

« عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بنى إسرائيل فخا ، فجاءت

(١) ج ٢ ص ٥٩ .

عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت . قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى . قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى حوائجى . قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربان إن مر بى مسكين ناولته إياها . قال : فخزيها فدنت ، فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها . فجعلت تقول : قعى قعى . تفسيره : لاغرنى ناسك مراء بعدك أبدا . »

وأرجح أنها إسرائيلية من ذكر الراوى وهو ابن منبه ، وأنه أسندنصب الفخ فيها إلى رجل من بنى إسرائيل .

وتلك قصة أخرى رواها ابن عبد ربه (١) عن الشعبى ـ والشعبى من كبار التابعين ، معاصر لعبد الملك بن مروان ـ جاء فيها : أن رجلا من بنى إسرائيل صاد قبرة ، فقالت : ماتريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك فآكلك . فقالت : والله ما أشفى من برم ، ولا أغنى من جوع ، ولكنى أعلمك ثلاث خلال هى خير لك من أكلى :

أما الواحدة فأعلمكها وأنا فى يدك ، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل ، فقال : هاتى . قالت : لاتلهفن على ما فاتك . فخلى عنها . فلما صارت فوق الشجرة قال : هاتى الثانية . قالت : لاتصدقن بما لايكون أنه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل . فقالت : ياشقى ، لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درة فيها زنة عشرين مثقالا . فعض على شفتيه وتلهف ، ثم قال : هاتى الثالثة . قالت له : قدنسيت الاثنتين فكيف أعلمك الثالثة ؟ ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك . فقد تلهفت على إذ فتك . وقلت لك لاتصدقن بما لا يكون أنه يكون ، فصدقت : أناوعظمى

---

(١) ج ٢ ص ٥٩ العقد الفريد

وريشى لا أزن عشرين مثقالا . فكيف يكون فى حوصلتى مايزنها !

وهذه القصة منسوبة إلى رجل من بنى إسرائيل أيضا .

جعل ابن عبد ربه القصتين تحت عنوان « مثل فى الرياء » وقد يكون ذلك منطبقا على القصة الأولى . أما الثانية فلا . ولو جعلهما تحت عنوان « مثل فى الخديعة » أو حسن الحيلة لكان أدق .

وليس فى هاتين القصتين طابع خاص يميزهما عن خرافات العرب أو خرافات غيرهم من الأمم . ولولا إسنادهما إلى رجل من بنى إسرائيل لما عرفنا أصلهما .

وقد نقلت قصة الثيران الثلاثة منسوبة إلى سيدنا على كرم الله وجهه فى كتاب مجمع الأمثال للميدانى[1] بعد المثل « إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » قال الميدانى :

يروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله تعالى عنه قال : إنما مثلى ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن فى أجمة : أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد فكان لا يقدر منهن على شىء لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا بدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ، ولونى على لونكما ، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة . فقالا دونك فكله ، فأكله . فلما مضت أيام قال للأحمر : لونى على لونك . فدعنى آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ، فقال : دونك فكله ، فأكله . ثم قال للأحمر : إنى آكلك لا محالة ، فقال : دعنى أنادى ثلاثا . فقال : افعل . فنادى : ألا إنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! ثم قال على رضى الله عنه : ألا إنى هُنْت . ويروى « وَهُنْت » يوم قتل عثمان ! يرفع بها صوته .

يضربه الرجل يزأ بأخيه .

---

(١) ج ١ ص ١٧

ولكن أبا هلال العسكرى يورد هذا المثل فى كتابه جمهرة الأمثال[١] ويقول : «يضرب مثلا للرجل وقد ناصره فلحقه الضيم ، وهو من أمثال كليلة ، وتمثل به على عليه السلام حين اختلف عليه . وعنى قتل عثمان رضى الله عنه» والميدانى متأخر عن ابن المقفع بأربعة قرون تقريبا ، وكان كتاب كليلة معروفا له ، وكذلك كتاب جمهرة الأمثال الذى نص على أنه « من أمثال كليلة » فكيف نسباه إلى سيدنا على ؟ وكيف جمع أبو هلال بين نسبته إلى سيدنا على ، وأنه من أمثال كليلة ؟ أهذا المثل عربى أخذه ابن المقفع ؟ هذا احتمال بعيد ، فإنه وارد فى «كليلة» فى باب الأسد والثور . وهذا الباب أقدم من سيدنا على ؛ لأنه مما نقل عن الهند فى « البانجاتانترا » .

أم أنه هندى نقل إلى الفرس وعرفه العرب عنهم ، وتمثل به سيدنا على ، ثم نقله ابن المقفع عن أصله الهندى ؟ وهذا احتمال لادليل عليه إلا الظن ، ولكنه يصحح نسبته إلى سيدنا على ، وإلى ابن المقفع .

وهناك نوع غريب من الشعر القصصى ، كنا نظن أن العرب لم يقولوا فيه هو محاورة الحيوان ومساءلته ، فى نظم قائم بنفسه ، وعلى نمط فات المتأخرين الذين عرفوا مثل هذا الشعر عن اليونان والفرنسيين وغيرهم ، فإنهم ينظمون ذلك شعرا مزاوجا من الرجز ، يستقل كل بيت منه بقافيتين ، ولكن هذا الشاعر أطلق القوافى فى رجزه فهو يغيرها عند انتقاله من معنى لمعنى مباين ، ولا جرم أن الشعر القصصى لو نظم على هذا النحو ، لأمكن منه ماظنه الأدباء غير ممكن »[٢]

أما الأرجوزة فهى عن أبى زياد الكلابى (٣) قال أكلت الضبع شاة رحل

---

(١) هامش أمثال الميدانى ص ٤٧ ج ١

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ١٥٣

(٣) يعده ابن النديم من الأعراب الذين كانوا يفدون على مدن العراق فيأخذ العلماء عنهم اللغة . وهو من الأعراب الذين كانوا يكتبون ويؤلفون كتبا . وهذه القصيدة فى الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١

من الأعراب فجعل يخاطبها ويقول :

ما أنا ياجعـار [١] من خطابك على دق العُصل [٢] من أنيابك
على حذا جحرك لا أهابك

ما صنعَت شاتى التى أكلت ملأت منهـا البطن ثم جلت،
وخنتنى وبئس ما فعلت

قالت له : لازلت تلقى الهمـا وأرسـل الله عليـك الحمى
لقد رأيت رجلا معتما [٣]

قال لها : كذبت ياخبـاث قد طال ما أمسيت فى اكتراث
أكلت شاة صبية غِراث [٤]

قالت له : والقول ذو شجون أسهبت فى قولك كالمجنون
أما ورب المرسـل الأمين لأجعَـلن بعـترك [٥] السمين
وأمه وجحشـه القرين حتى تكونَ عقـلة العيون

فتوعدها فسخرت منه ، ولكنه ظفر بها فقتلها ثم شواها .

ومحاورة الحيوان أو مساءلته قد جاءت فى شعر الفرزدق «وأطلس عسال» وفى محاورة الذئب للشاة قبل أن يأكلها ، ومحاورة الحية ذات الصفا ، وفى قصة عدى بن زيد ؛ والجديد فيها هو نوع النظم .

وتلك قصة أخرى من عمل الخيال : للتسلية أو للتهكم والسخرية :

---

(١) جعار ، وأم جعار ، وأم جَعُور « الضبع » .
(٢) العصل « جمع أعصل ، وعصلاء وهى المعوجة الصلبة .
(٣) المعتم « المكتهل ، ولعلها تعتذر عن أكلها لشاته بأنه رجل عجوز لا حاجة له فى الادخار .
(٤) غراث « جياع » . (٥) العتر : شاة أو خروف أو حمل

روى الأغانى (١) عن الرواة قال إن بشارا جاء إلى أصدقائه يوما ، فقال له أحدهم : مالك مغتما ؟ فقال : مات حمارى فرأيته فى النوم فقلت له : لِمَ مت ؟ ألم أكن أحسن اليك ؟ فقال :

سيدى خذ بى أتانا ... عند باب الأصبهانى
تيمتنى ببنان ... وبدل قد شجانى
تيمتنى يوم رحنا ... بثنايا ها الحسان
وبغنج ودلال ... سل جسمى وبرانى
ولها خد أسيل ... مثل خد الشنفران
فلذا مت ولو عشـ ... ـت إذا طال هوانى

فقال له سائله : ما الشنفران ؟ (٢) قال : ما يدرينى ؟ هذا من غريب الحمار فاذا لقيته فاسأله :

وقد رواها المسعودى (٣) لأبى العنبس أحد شعراء المتوكل ، وكان شاعرا يضحك الخليفة ورجال الدولة ، ويغشى مجالسهم فيطربهم ، وقد ينال بفكاهاته أو سخريته ومزاحه بعض الحاضرين ، فيغيظه ويوجعه .

ذكر المسعودى أن البحترى أنشد المتوكل قصيدة فى مدحه مطلعها :

عن أى ثغر تبتسم

فسخر منها أبو العنبس ، وأنشد قصيدة على رويها ووزنها يهجو فيها البحترى ويسبه ويتهكم بشعره ، فتغيظ البحترى ، وضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وقال : ادفعوا لأبى العنبس عشرة آلاف درهم . وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل حاضرا فقال : ياسيدى ، البحترى الذى هجى

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٢٣١

(٢) « الشنفرانى » فى معاهدة التنصيص جـ ١ ص ٩١ وفى بعض نسخ الأغانى (الشيغران) بالياء والغين (٣) مروج الذهب جـ ٤ ص ٤٣ .

وأسمع المكروه ينصرف خائبا ! فقال المتوكل : ادفعوا للبحترى عشرة آلاف . واستمروا فى هزلهم . ولم ينفع البحترى جده واجتهاده وحزمه . ثم قال المتوكل لأبى العنبس : أخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره والرؤيا التى أريتها . قال : نعم . يا أمير المؤمنين ، كان حمارى أعقل من القضاة ، ولم يكن له جريرة ولا زلة ، فاعتل على غفلة فمات ، فرأيته فى النوم فقلت له : ياحمارى ، ألم أبرد لك الماء ، وأنق لك الشعير ، وأحسن إليك جهدى ؟ فلم مت على غفلة ؟ وما خبرك ؟ قال : لما كان فى اليوم الذى وقفت فيه على فلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا ، مرت بى أتان حسناء فرأيتها ، فأخذت بمجامع قلبى فعشقتها واشتد وجدى بها ، فمت كمدا متأسفا . فقلت له : ياحمارى ، فهل قلت فى ذلك شعرا ؟ قال : نعم ، وأنشدنى :

هام قلبى بأتان عند باب الصيدلانى
تيمتنى يوم رحنا بثنايا ها الحسان
وبخد ذى دلال مثل خد الشنفرانى
فبها مت ولو عشـ ـت إذا طال هوانى

فقلت : ياحمارى ، ما الشنفرانى ؟ قال : هذا من غريب الحمير . فطرب المتوكل ، وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح فى ذلك اليوم فرحا شديدا لم ير مثله . وزاد فى تكرمة أبى العنبس ، وأحسن جائزته .

والشبه بين شعرهما واضح ، وخلاصة القصة كذلك ، ولكن المسعودى أحسن سبكا من الأغانى وأكثر تفصيلا . وقد خلق للقصة فى روايته جوا مرحا فى مجلس الخليفة ، وكانت مناسبة الشعر وغرام الحمار لهذا المجلس مناسبة ظاهرة .

وقصة أبى العنبس لم تكن بنت ساعتها كقصة بشار ، ويظهر أنها كانت معروفة . إذ أن الخليفة صرفه عن البحترى إليها ، وطلب منه أن يقص عليه

خبر حماره ووفاته وشعره . والطلب على هذه الصورة يدل على سابق علم الخليفة بها . وقد أطربته بالرغم من ذلك . وأجاز أبا العنبس عليها .

وأرجح أن قصة الحمار شهيد الغرام واحدة خلط الرواة فى نسبتها، وأرجح نسبتها إلى أبى العنبس ؛ لما أضيف اليها من أنه كان مضحكا للخليفة ، ومثلها يضحك ويليق بمجلس لهو كذلك الذى ذكره المسعودى ، وأما بشار فكان ثقيل الظل حتى فى فكاهته التى كان يتكلفها .

وقد حاول بعض المستشرقين (١) أن يجعل هذه القصة ـ من طريق غير مباشر أثراً من آثار اليونان فى الحب العربى . فيقول : إن العرب قلدوا اليونان فى فهمهم للحب وتصويرهم له ، وإن هذا الهيام الذى كان يستولى على العاشقين فيسلبهم إرادتهم وعقلهم ، ويثير عطف الناس عليهم لما كانوا يلقونه من آلام الحب وتباريخ الهوى ، ليس إلا تقليدا لليونان ، وأن العرب لما نقلوه وبالغوا فيه ظهر فيهم مثل أبى العنبس فوضع هذه القصة الغرامية ، وجعل بطلها حمارا ؛ للسخرية والاستهزاء من أولئك المحبين على الطريقة اليونانية .

من المعقول أن يضع أبو العنبس قصة كهذه للسخرية من المحبين الذين قتلهم العشق ، وأن تكون لها غاية ومغزى . ولكن من قال إن العرب لم يظهر فيهم من قتله العشق أو تيمه ! إن مثل هذا العشق مازال موجودا . ونحن نراه ونسمع به فى أوساط مختلفه وأعمار مختلفه . وسمعنا به فى الأدب العربى من قبل أن يتصل العرب باليونان ، وروى لنا الكثير من قصص المجنون . وجميل . وكثير . وتوبة الخفاجى . والذين ينكرون هذه الشخصيات ، وحوادثها ، لايستطيعون إنكار هذه العاطفة ونتائجها ، والذى يريد أن يخضع العاطفة للعقل ، ويجعل آثارها مسايرة لأحكامه يخطىء ، ويتجنى على

---

(١) Von Grunbaum, Medieval Islam P. 312-313

الواقع ؛فلم لا يكون هذا العشق إلا يونانيا يستحق النقل من بلاد اليونان ؟

« قصة البازى والديك »

وهذه قصة أخرى رواها الجاحظ عن خلاد بن يزيد الأرقط ، أحد الرواة للأخبار والقبائل والأشعار ، قال : (١)

« بينما أبو أيوب الموريانى جالس فى أمره ونهيه إذ أتاه رسول أبى جعفر فانتقع لونه ، وطارت عصافير رأسه ، وأذن بيوم بؤسه ، وذعر ذعرا نقض حبوته ، واستطار فؤاده . ثم عاد طلق الوجه . فتعجبنا من حاله وقلنا له : إنك لطيف الخاصة ، قريب المنزلة ، فلم ذهب بك الذعر ، واستفزعك الوجل؟ فقال : سأضرب لكم مثلا من أمثال الناس :

« زعموا أن البازى قال يوما للديك : ما فى الأرض شيء أقل وفاء منك. قال : وكيف ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على أيديهم فأطعموك على أكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى إذا كبرت صار لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا ، وضججت وصحت . وأخذت أنا من الجبال مسنا ، فعلموني وألفوني ، ثم يخلى عنى فآخذ صيدى فى الهواء فأجيء به إلى صاحبى . فقال له الديك : إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم مثل ما رأيت من الديوك لكنت أنفر منى . »

ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تعجبوا من خوفى ، مع ما ترون من تمكن حالى وقد نقم عليه المنصور بعد ذلك ، ومات سنة ١٥٤ .

كان هذا الوزير فارسيا يخدم ملكا عربيا ، وكان للفرس أثر عظيم فى خدمة الدولة العباسية . وكان اتصالهم بالعرب وبالهند قويا وتلك كلمة عن هذا الاتصال ومدى تأثيره فى الأدب العربى عامة وقصة الحيوان خاصة .

---

(١) الحيوان للجاحظ ج٢ ص ٣٦١ ، ووفيات الأعيان ج١ ص ٢١٥ .

الفصل الثامن

الفرس بين العرب والهند

اتصل العرب بالفرس فى الجاهلية ، وخضعوا لحكمهم زمنا ، كما جاوروهم من قديم الزمان فى بلاد العراق .

فى عهد سابور الأول ، حوالى سنة ٢٤٠ م ، أسس الفرس امارة الحيرة على نهر الفرات ، وكان ملك فارس هو الذى يعين على عرب الحيرة أمير من أنفسهم ، وعليهم أن يحموه من كل مغير يأتى من جهتهم .(١)

وكان عرب الحيرة يحملون تجارة فارس إلى أسواق الجزيرة . وفى عهد يزدجرد الأول (٢) أرسل الملك أكبر أبنائه «بهرام» إلى عرب الحيرة لينشأ بينهم ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء . وكان يعرف العربية . وفى سنة ٦٠٢ م مات النعمان الخامس الملقب بأبى قابوس — وهو صاحب النابغة الذبيانى — فألغت الحكومة الفارسية نظام الامارة ، وولت من قبلها حاكما فارسيا ، وظل الحال كذلك حتى فتح المسلمون هذه البلاد على يد خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

وكان الأمراء العرب مقصد الشعراء من داخل الجزيرة ، لمدحهم وأخذ جوائزهم والاقامة عندهم ، والاستمتاع بنعيمهم ؛ وحديث النابغة الذبيانى مع النعمان معروف مشهور . ووفادة الأعشى على الحيرة مشهورة ، وقد جاءت فى شعره ، ومن أشهر قصائده معلقته التى مطلعها :

« ما بكاء الكبير بالأطلال »

---

(١) فجر الاسلام ص ١٨

(٢) من سنة ٣٩٩ - ٤٢٠

التى مدح فيها الأسود بن المنذر أخا النعمان . (١)

كما كانت لهم الحكومة بين القبائل العربية التى تجاورهم كبكر وتغلب وكان آخر صلح لهاتين القبيلتين بعد حرب البسوس على يدعمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر . وقال الحارث بن حلزة معلقته فى مجلس عمرو هذا ، كما قال عمرو بن كلثوم معلقته التى يتحدى فيها عمرو بن هند ، بل قيل إنه قتله فى ذلك المجلس .

وكان اتصال العرب بالفرس فى الحيرة داعيا إلى معرفتهم لكثير من أخلاق الفرس وعاداتهم وقصصهم وأدبهم .

ومن شعراء العرب من وفد على ملوك فارس كالأعشى . قيل إنه مدح كسرى وأخذ جوائزه . ووفود خطباء العرب على كسرى مشهور . (٢)

ولا يعنينا أن تكون هذه الوفادات على الفرس موضع شك ، وإنما الذى يعنينا هو أن هذا الاتصال كان موجودا ، بحكم الجوار ، وبسط الفرس لسلطانهم على تلك الديار زمنا طويلا ، ومخالطتهم لأهلها . وقد ترك هذا الاتصال أثرا واضحا فى العرب فى ذلك الوقت ، فنقلوا بعض ألفاظهم كالمتصلة بأدوات الزينة والترف والنعيم ، لما عرفوا عاداتهم وملابسهم وطعامهم الخ

وكان النضر بن الحارث (٣) يعرف قصص ملوكهم وأبطالهم ، وكان يقول فى مكة إنه يستطيع أن يحدث بحديث أولئك الملوك والأبطال ، ليصرف الناس عن الاستماع إلى محمد عليه السلام - الذى يحدثهم بأحاديث عاد

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٩٢ السندوبى ، الوسيط ص ٨١

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٦٦ ، كتاب الوفود ، وطبقات الشعراء لابن قتيبة ١٣٧

(٣) الكشاف ج ٢ سورة لقمان : تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهو الحديث »

وثمود . وكان أبو زبيد الطائى من زوار الملوك ، وللملوك العجم خاصة ، وكان عالما بسيرها (١)

ولكنى لم أجد من قصص الحيوان شيئا يحتمل أنه نقل عن الفرس فى ذلك الوقت إلا على سبيل الظن ، كبعض القصص التى فيها معنى التناسخ ، كمسخ الماكسين ضبعا وذئبا فيما تقدم (٢) ، ولكنه لا دليل يرجح النقل عنهم ولا عن الهنود .

وفى الإسلام اتصل بهم العرب وحكموهم . وأسروا منهم ، وتزوجوا من نسائهم ، وانتقل الفرس إلى الجزيرة أرقاء أو موالى ، وأقام العرب فى بلاد فارس حكاما ، ثم سكنوها ، واتصلوا بأهلها .

إنه كان للفرس أدبهم ، فى ذلك التاريخ الطويل . وقد نقلت اليهم أقاصيص الهند الحيوانية ، وأشهر ذلك فى أيام كسرى نوشروان العادل المحب للعلم .

ومن الطبيعى أن يعرف العرب شيئا من ذلك بحكم هذا الاتصال المتقدم . فأمهات الأولاد يحكين لأولادهن بعض القصص ، والرجال يحكون لمخالطيهم من العرب بعض هذه القصص ، ويضربون لهم منها الأمثال ؛ ولكن الأدب الأموى خال من هذه القصص ، فما السبب ؟

١ ـ أرى أن عصبية العرب لأدبهم وإكبارهم له فى عهد بنى أمية ، وتأثرهم آثار أسلافهم من الجاهليين ، وفى الشعر بوجه خاص قد ، صرفتهم عن تقليد الفرس .

٢ — وقد عنى بنو أمية بتوجيه الأدباء ، والشعراء منهم خاصة ، إلى الأدب السياسى والهجاء والمدح ؛ لينتفعوا بذلك فى تثبيت عرشهم ، فلم يتركوا للشعراء فرصة التفكير فيما عند الفرس لو عرفوه .

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٣٣

(٢) ص ٤٧ — ٤٨ من هذا الكتاب

٣ والذين قالوا الشعر من الموالى الفرس لم يتجهوا إلى الأدب الفارسى ليأخذوا منه موضوعاتهم ، بل قلدوا الطرق العربية فى الشعر ، وجاروا شعراء العرب فى الأساليب والموضوعات والمعانى . كزياد الأعجم وأيمن بن خريم ، واسماعيل بن يسار

٤ ـ وأما النثر فكان ساذجا ، وكان لخدمة السياسة والإدارة . وكانت الكتابة العربية ضيقة الميدان ، لقلة الكتاب ، واقتصار الموضوعات على الناحية السياسية ، ووضع النظم التى يجب أن يسير عليها الولاة والأمراء .

٥ ـ ولم يكن ظهر فى ذلك الوقت من الكتاب من ينشىء الأدب لذات الأدب ، أو من يختار الناحية الرمزية لإرشاد الملوك والولاة إلى النظام الصالح ، والمثل الأعلى فى سياسة الرعية . وهذه من أهم أغراض الخرافات .

٦ ـ شغل الرواة ـ حتى العجم ـ فى ذلك الوقت برواية الأدب العربى وأخبار الأمة العربية ، مجاراة لروح العصر ، واهتماما بالمهم المربح من الأدب . وذلك لإيثار بنى أمية لكل ماهو عربى .

وإذا كنا رأينا فيما يروى أن معاوية كان يستمع لقوم يقصون عليه كل ليلة « أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها فى رعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ، فكم مرة كان ذلك فى تاريخ معاوية ؟ لاندرى . ولا ندرى أيضا طريقة تلك الأخبار ، أكانت رواية أم شرحا وتعليقا ودراسة.

وكان له غلمان مرتبون . « وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرءون عليه ما فى تلك الكتب من سير الملوك وأخبار الحروب ومكايدها وأنواع السياسات . »[1]

والظاهر أن الخبر بعيد عن التصديق فقد أورده المسعودى على صورة فيها مبالغة . فقالوا إنه كان يجلس لأصحاب الأخبار كل ليلة بعد العشاء إلى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٣١ والمسعودى ج ٢ ص ٥٢

ثلث الليل ، ثم ينام الثلث الثانى، ثم يأتى أولئك الغلمان فيقرءون عليه ما فى تلك الكتب» . وهذا قد يحدث مرة أو مرات ، ولكنه لا يمكن أن يكون كل ليلة.

ويرى جورجى زيدان « أن تلك الكتب فى اليونانية أو اللاتينية وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان . وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية ».

ربما كان الخبر مقبولا فى جملته ولكنه بعيد عن القصص الحيوانية[1]

والأدب الفارسى كان يستمتع بما نقله عن الهنود فى أيام الملك العادل كسرى أنوشروان ، وكان أهم مانقله عنهم من نوع الخرافات التى اشتهرت الهند بأنها مصدر من مصادرها المهمة ، لكن هذه الخرافات ظلت بعيدة غريبة عن الأدب العربى طول عهد الأمويين ، ثم ترجمت فى أول عهد العباسيين إلى اللغة العربية ترجمة عظيمة ، ونسى أصلها الهندى والفارسى، حتى ألقت الأبحاث الحديثة ضوءا على الأصول القديمة ، وبينت شيئا من فضلها على الخرافات فى القديم والحديث .

وأشهر الكتب التى تأثرت بالهند كتاب « كليلة ودمنة » وقصص « ألف ليلة وليلة » وأهم مصدر للخرافات التى ظهرت فى الأدب العربى هو :

البانجا تانترا « Pacgataatra »

ويسمى المقالات الخمسة أو الكتب الخمسة :

وهى كتاب واحد يضم خمسة فصول كل فصل منها تحت عنوان خاص(٢):

(١) « La Brouille des Amis » أو التفريق بين الأصدقاء

(٢) « L, Aquisition des Amis » أو اكتساب الأصدقاء

(٣) « La Guerre des Corbeaux et des Hiboux » أو حرب البوم والغربان

---

(١) تاريخ آداب اللغه العربيه ج ١ ص ٢٣١

(٢) Aubertin : Fables De La Fontaine P. 20 .

(٤) (La Perte de ce qu,on a Acquis) أو ضياع الحاجة بعد الظفر بها
(٥) (Le Danger des Actions irréfléchies) أو خطر مالاروية فيه من الأعمال .

ويظهر أن قصص « البانجا تانترا أو الكتب الخمسة عن السياسة وفن الحكم » لم تأت إلينا فى شكلها الأصلى (١) وما هو عند الأوربيين من تراجمها الآن قد كتب بعد الأولى ، وعلى نمطها إلى حد ما ، ولعل الأصل كان كتيبا فى السياسة لتعليم صغار الأمراء .

وفى هذا إشارة إلى أنه كان هناك نسخة أولى من هذا الكتاب ضاعت وما بقى كان مجموعة أخرى بعد الأولى بزمن ، ومتأثرة بها إلى حد كبير . يقول « أوبرتان » عن البانجاتانترا التى أشار اليها وسماها المقالات الخمسة ما يأتى :

« وليس هذا إلا جزءا من مؤلف أتم وأوفى فى ثلاثة عشر فصلا » . ويؤيد ذلك ماجاء فى كتاب « حكمة الهند » (٢) وهو : « هناك مجموعتان مهمتان من قصص الحيوان » (Animal Fables) فى الأدب الهندى هما « البانجاتانترا » (Panchatantra) و « الهيتوبا ديسا Hitopadesa »

والأولى أقدم وأغنى ، وتشمل سبعا وثمانين (٨٧) قصة ، والثانية ثلاثا وأربعين (٤٣) منها خمس وعشرون فى « البانجا » . وقد يكون تاريخ تدوين « البانجا » حوالى القرن الثانى ق . م . فى كشمير كما يقول دكتور هرتل . لكن القصص فيها أقدم كثيرا ، كما تدل الشواهد فى المؤلفات السنسكريتية

وقد جاء فى كتاب « الهند القديمة وحضارتها » (٣) أن للبانجاتانترا الثانية محورا عاما وهو « ملك يائس من تعليم ابنيه الأميرين لغباوتهما . وأخيرا يستخدم حكيما برهميا ليعلم هذين الأميرين أصول المعاملات الانسانية .

---

(١) Ancient India and Indian Civilization P. 323

(٢) The Wisdom of India P. 245

(٣) صفحه ٣٢٣

ويستمر فى تعليمها هذه الدروس ويشرح الطبيعة الانسانية بطريق الخرافات، ويدخل قصة فى أخرى بلباقة ، وكثيرا ما يجعل شخصية فى القصة تبدأ قصة أخرى قبل أن تنتهى السابقة . ويختم القصة بالمغزى . وكثير من هذه المواعظ اقتباسات من كتب أقدم مثل « الفيدا » .

ويلاحظ أن تلك الطريقة هى التى سار عليها ابن المقفع فيما نقله وما ألفه من هذه القصص .

واذا جمعنا ما ورد فى هذه الكتب الثلاثة : حكمة الهند ، والهند القديمة وحضارتها ، ومقدمة خرافات لافنتين ، بعضه الى بعض وجدنا ما يأتى :

١ — أن هذا الكتاب " Pancha " لم يأت الينا فى شكله الاصلى، وأنه مسبوق بكتاب آخر .

٢ — وأن تاريخ تدوين الكتاب هو حوالى القرن الثانى ق. م أى قبل كليلة ودمنة بحوالى عشرة قرون .

٣ - وأن المقالات الخمسة تكاد تكون أصلا صريحا للابواب التى تشبهها عند ابن المقفع .

٤ وأن كلا من هذه المقالات الخمسة تشتمل على قصة أصلية ، وقصص فرعية فى كل باب . وبهذا يبلغ عددها سبعا وثمانين .

٥ - وأنها قد تركت آثارا فى الأدب الهنـــدى نفسه فكتبت « الهيتوبادبسا » أو « موعظة الصديق » على نمطها ، واقتبست منها خمسا وعشرين قصة من قصصها الخمس والأربعين .

ولا أدرى ان كان الكتاب الهندى الذى سبق هذا الكتاب عرف بهذا الاسم ام لا . غير ان كتاب « الهند القديمة »[1] يشير الى اسم آخر فيقول : ان « البانجاتانترا » الجديدة مؤلف من بقايا كتاب اسمه « تانترا خايا بيكا »

---

(١) ص ٣٢٤

Tantra Khyayika . أو مجموعة القصص القصيرة وقصص اخرى . وقد أورد منه قصة «فشنو والنسّاج» Vishnu and The weaver[1] وخلاصتها:

أن نساجا فقيرا رأى أميرة فمرض من الحب ، فصنع صديق له من صناع العربات « جارودا » من الخشب ، وهذا الجارودا Garuda هو النسر الاسطورى الذى يركبه الاله فشنو ، ولبس النساج صفات فشنو وركب النسر وطار به حتى دخل جناح الأميرة فى قصرها ، فاعتقدت انه الاله فشنو ، وتضرع اليها فقبلته زوجا ، وأعلنت والديها أنها تزوجت فشنو وأنه صار صهرا لها . فرضيا بعد غضب وثورة ، ورأياه فى الليل قادما من السماء يحمل علامات قوته ، ومنها القرص والصدفة ، ولم يستطيعا ان يكلماه وامتلأ الملك عجبا بهذه المصاهرة . فأثار حربا على جيرانه ، فصمدوا له وحاصروا مدينته ، وأحاطت به المصائب ، غير أن « فشنو » المدعى هدأ الأميرة ، وأعد نفسه للاشتراك فى النزاع ، وآثر أن يموت بطلا فى الدفاع عن صهره ، فأحس « فشنو » الحقيق أنه تورط ، وأبى أن يرى « فشنو » المدعى يهلك وهو على شكله وصورته ، فساعده وكان له النصر . »

ومن يقرأ ألف ليلة وليلة يجد قصة الحصان الأبنوس وليدة هذه القصة وأن هذه القصة قد انتقلت عن ألف ليلة وليلة إلى أوربا . وكتبها Chaucer تشوسر مع شيء من التعديل ، نقلا عن أسبانيا ، فى قصته The Squire's Tale ،

وفى «البانجا» كثير من القصص الجميلة كالأرنب الذى غلب السبع أو الفيل بذكائه وحيلته ، والفأرة التى صارت قطة وأرادت أن تختار زوجا ، فرأت عيبا فى كل من تقدم لخطبتها من الشمس والسحاب والريح والجبل ، ولم يحل فى عينها إلا الفأر فاختارته[2] .

---

(١) فشنو هو الاله الحافظ عند الهنود .

(٢) مقدمة Eastwick لكتاب أنوار سهيلى P. IX ، وقصة هذه الفتاة فى كليلة فى باب البوم والغربان .

وقد صورت الرجل المثالى بأنه الرجل العادى فهو خير زوج ورب بيت . وأهم فضائله الكرم والاخلاص للأصدقاء .

وواجبات الملك واضحة فيها . فعليه أن يقاتل بشجاعة ، وأن يفدى شعبه بنفسه ، وأن يحمى البرىء ، وأن يحكم البلاد بمعرفة الوزراء .

وقد ترجمت البانجاتانترا فى القديم [١] . فترجمت الى الفهلوية فى القرن السادس وكانت ترجمتها أصلا لكليلة ودمنة ثم ضاع هذا الأصل . وترجمت عن هذا الأصل إلى السريانية أيضا حوالى سنة ٥٧٠ م باسم « كيلاج ودمناج » وترجمت فى القرن الثامن الميلادى ترجمة عربية موسعة ترجمها ابن المقفع . باسم كليلة ودمنة . وكانت هذه الترجمة العربية الأصل الذى ترجمت عنه إلى لغات أوربا وغيرها . ومن أهم تراجمها الى الفرنسية الترجمة المعروفة باسم Livre des Lumiéres, ou La Conduite des Roys ترجمها دافيد ساهيد David Sahid سنة ١٦٤٤ م .

فاذا جاء ابن المقفع وترجم « كليلة ودمنة » كان عمله جديدا فى اللغة العربية يمتاز بأنه أول مجموعة فى القصص الرمزية الأخلاقية ـ وأكثرها عن الحيوان ـ وقد وفق ابن المقفع الى اسلوبه الخاص وبيانه العالى ، فظفر كتابه بالخلود ، وبالترجمة الى أكثر اللغات المعروفة ، وكان فتحا جديدا فى الأدب العربى [٢] .

---

(١) الهند القديمة وحضارتها ص ٣٢٦

(٢) كان أبو الريحان البيرونى يتمنى أن يترجم « كتاب البانجاتانترا » أيضا . وليته فعل ، فقد كان عالما بالهند وباللغة الهندية علما تاما ، « مقدمة كليلة ودمنة تحقيق الدكتور عزام نقلا عن كتاب البيرونى » ما للهند من مقوله منقولة ومعقولة »

الفصل التاسع

كليلة ودمنة

« لعبد الله بن المقفع »

أما ابن المقفع فهو أشهر كتّاب القصص الحيوانية فى الشرق ، وهو علم من أعلام البيان العربى . ولد سنة ١٠٦ هـ بالبصرة من أسرة فارسية . وكانت نشأته فى البصرة ، واتصاله برجال الأدب والرواية ، وخاصة بعبد الحميد بن يحيى ، مع حسن استعداده ، وقوة حافظته ، سببا فى أن يكون كاتبا من الطراز الأول .

عرف ابن المقفع بأنه قويم الأخلاق ، فكان كريما بماله ، وفيا لأصحابه ، حريصا على الجهر بآرائه فى إصلاح أحوال الناس جميعا ، وكانت آثاره : « الأدب الصغير »(١) و « الأدب الكبير »(٢) و « رسالة الصحابة »(٣) دليلا على ذلك .

وكانت معرفة ابن المقفع بآداب قومه ونظمهم السياسية وحكمهم الأدبية وأشهر كتبهم فى التاريخ والأخلاق معينا لحكمه ومعانيه . وقد ترجم بعض

---

(١) الأدب الصغير - مجموعه من الحكم الموجزة لتهذيب النفس والخلق .

(٢) « الكبير - يجمع حكما وكلمات تدور حول السلطان والولاة ، والصداقة والصديق .

(٣) رسالة الصحابة - رسالة وجهها الى الخليفه - المنصور غالبا - يبين فيها ما يجب ان يكون من صفات الكمال فى اصحابه ، وخدم دولته ، وما يجب عليه للرعية ايضا .

هذه الكتب . ومن أشهر ما ترجمه وأبقاه ، كتابه الخالد « كليلة ودمنة » .

وقد قيل إن ترجمة هذا الكتاب كانت سببا فى قتله سنة ١٤٢ هـ ، لما بينه فيه من حقوق الرعية على الحاكمين . ورأى المنصور فى هذا تنبيها للناس إلى المطالبة بحقوقهم ، فغاظه ذلك ؛ كما غاظه أن يضع ابن المقفع نفسه موضع المرشد للخلفاء الى ما يجب أن يفعلوا . فلما اتهم بالزندقة وقتله عامل البصرة ، لم يعبأ الخليفة بالقصاص من قاتله ، ولا بالتحقيق فى أمر قتله [1] .

ويظهر من اتجاهات ابن المقفع فى تأليفه أنه كان صاحب دعوة أخلاقية سياسية حرص على إذاعتها فى كتبه . وخلاصتها تهذيب النفس وحسن المعاملة .

وكان فارسى النزعة فاتجه إلى آداب قومه وأخلاقهم ونظمهم فنقل عنها . فقد ترجم من الفارسية كتاب « آيين نامه » وهو وصف لنظم الفرس وتقاليدهم وعرفهم .

وترجم كتاب « خداى نامه » — وهو كتاب فى تاريخ الفرس من أول نشأتهم . سماه « تاريخ ملوك الفرس » وترجم كتاب « التاج فى سيرة أنو شروان » وغير ذلك .

ونستطيع الآن أن نفهم السبب فى ترجمة ابن المقفع لكتاب كلية ودمنة ، فهو أثر من الآثار القيمة فى اللغة الفارسية ، وهو كتاب أدب وحكمة ، فيه مواعظ وسياسة ، وفيه إرشاد وتعليم ، وفيه آداب سلطانية ، وما يجب على الحاكم أن يتصف به من صفات ؛ وما يجب على المحكومين أن يراعوه عند صلاتهم بهؤلاء الحكام . وابن المقفع الراغب فى الإصلاح ، يلجأ الى ترجمة الكتاب ، ويزيد بعض الأبواب عليه ، لما يرجو أن يكون فيه من الفائدة للخواص وأصحاب السيادة أولا :

---

(١) فى كشف الظنون ج ٢ ص ٣٢٩ أنه « توفى سنة نقله » .

كتاب كليلة ودمنة

أهم كتاب فى قصص الحيوان فى الأدب العربى . وأعظم ما خلفه ابن المقفع من آثاره الأدبية ، ومن أكثر الكتب التى ترجمت الى لغات أخرى غير لغتها وتركت أثرا فى اللغات التى نقلت اليها .

وقد رأينا فيما تقدم [1] أن « البانجاتانترا » تشتمل على خمسة أبواب ، وبمقارنتها بالأبواب الآتية من كليلة ودمنة يتضح مدى التشابه بينهما :

١ — باب الأسد والثور ؛ وأوله قول دبشليم الملك لبيدبا : « اضرب لى مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال » .

٢ — باب الحمامة المطوقة ، وفى أوله قول دبشليم للفيلسوف : « فحدثنى إن رأيت ، عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض » .

٣ — باب البوم والغربان ، وأوله قول الملك للفيلسوف « فاضرب لى مثل العدو الذى لا ينبغى أن يغتر به وإن أظهر تضرعا وملقا » ، ويلاحظ أن هذا العنوان فى كليلة ودمنة مثله فى البانجاتانترا .

٤ — باب القرد والغيلم ، وقد قال دبشليم للفيلسوف فى أوله : « فاضرب لى مثل الرجل الذى يطلب الحاجة فاذا ظفر بها أضاعها » .

٥ — باب الناسك وابن عرس ، وأوله قول دبشليم لبيدبا الفيلسوف : « فاضرب لى مثل الرجل العجلان فى أمره من غير روية ولا نظر فى العواقب » .

وتكاد الجمل الأولى من هذه الأبواب من « كليلة ودمنة » تكون مأخوذة بنصها من عناوين الأبواب التى تقدمت فى « البانجاتانترا » .

وفى بعض القصص الفرعية أيضا كقصة « المرأة التى باعت سمسما مقشورا بغير مقشور » .

---

(١) ص ١١٤ ، ١١٥ من هذا الكتاب

وقصة الحمار الذى بلا قلب ولا أذنين[١] .

وقد قال ابن المقفع فى باب عرض الكتاب انه « مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث[٢] » . وتسمية الكتاب بهذين الحيوانين « كليلة ودمنة » وترجمة الكتاب الى السريانية بهذا الاسم ، قبل ان ينقل الى العربية ، دليل على أنه أجنبى عنا أيضا[٣] .

وقد تتبع الباحثون أبوابه وبينوا مانقله ابن المقفع وما وضعه ، كما بينوا ما أخذه الفرس من الهند وما وضعوه .

والنسخ التى بين ايدينا فيها اختلاف . وكذلك المنظومات التى نقلت عنه ، فالأبواب الهندية عدا ما تقدم هى : الجرذ والسنور ، الملك والطائر فنزة ، الأسد وابن آوى ، اللبؤة وبلاذ وايراخت ، السائح والصائغ ، ابن الملك واصحابه .

والفارسية هى مقدمة برزويه وبعثته ، وباب ملك الجرذان .

ويظن ان ابن المقفع هو كاتب الأبواب الباقية ، بعد المقدمة التى كتبها بهنود بن سحوان ، المعروف بعلى بن الشاه الفارسى[٤] .

---

(١) قصة التى باعت السمسم فى صفحة ١٨٦ كليلة ودمنة الطبعة الخامسة عشرة . وهى الثانية فى الباب الثانى من البانجا تانترا . وقصة الحمار بلا قلب ولا اذنين فى باب القرد والغيلم ص٢٣٦ « كليلة » هى الثانية من الباب الرابع فى البانجا تانترا ، (مقدمه ترجمة Eastwick لكتاب انوارسهيلى "P. XII.")

(٢) ص ٥٨ باب عرض الكتاب (٣) ترجم من الفارسية الى السريانيه سنه ٥٧٠ م باسم كليلاج ودمناج (كتاب حكمه الهند ص ٣٤٥)

(٤) وفى كتاب ضحى الاسلام حـ ١ ص ٢١٦ فصل عن هذا الكتاب جدير بالتقدير . وللدكتور عبد الوهاب عزام مقدمه قيمه تكلم فيها عن اصول الكتاب وطبعاته المختلفه ، وما فيها من زيادات ونقص وتحريف فى الابواب والعبارات والالفاظ ، واسماء الاشخاص والاماكن ، وذلك فى الطبعه التى نشرها من كليلة ودمنة منذ تسع سنوات (١٩٤١) .

وقد عرف كتاب كليلة ودمنة فى الشرق والغرب ، وذاعت شهرته ، وترجم الى كل اللغات المعروفة فى القرون الوسطى . فتأثرت بها خرافاتها .

والفرس قد عنوا به ، فنقلوه الى الفارسية مرات ، فى عصور مختلفة ، وقد اشار الى هذه الترجمات كتاب تاريخ الأدب الفارسى لمؤلفه الدكتور رضا زاده شفق ، استاذ الادب الفارسى فى جامعة طهران(١).

وإذا كان الفرس يعتبرون كليلة ودمنة فارسية فإنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغ ابن المقفع فى فصاحته وعلو أسلوبه، كما عجز المقلدون والناظمون لهذا الكتاب فى الأدب العربى عن أن يبلغوا مبلغه .

أبواب الكتاب

أما أبواب الكتاب كما جاءت فى الطبعة الخامسة عشرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٩٢١ فهى .

١ — خطبة الكتاب ؛ وفيها اشارة الى فضل محمد على باشا على العلوم والكتب العربية ، وطبع القيم منها فى المطبعة الأميرية، ومن ذلك كتاب كليلة ودمنة من نسخة موثوق بها الى حد كبير .

٢ — ثم مقدمة الكتاب ، وهى التى قدمها بهنود بن سحوان المعروف بعلى بن الشاه الفارسى (٢) . ذكر فيها السبب الذى من أجله عمل بيديا الفيلسوف الهندى ، لدبشليم ملك الهند ، كتابه الذى سماه « كليلة ودمنة » والسبب الذى من أجله أنفذ كسرى أنو شروان ملك فارس ، برزويه رأس الأطباء ،الى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة... وذكر الذى كان من بعثه برزويه الى مملكة الهند لأجل نقل الكتاب . وذكر فيها ما يلزم مطالعه من

---

(١) ترجمة الدكتور هنداوى ص ١٥ ، ٢٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٩٦

(٢) هو ابو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهرى وكان اديبا مفاكها فى نهاية الظرف والنظافه وتوفى سنه ٣٠٢ هـ (ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٧) .

إتقان قراءته ، والقيام بدراسته ، والنظر الى باطن كلامه .. وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهرا ، وذكر السبب الذى من أجله وضع بزرجمهر بابا مفردا يسمى باب برزويه المتطبب ؛ وجعله قبل باب الأسد والثور الذى هو أول الكتاب .

٣ — والباب الثالث هو باب بعثة برزويه الى بلاد الهند ؛ أوفده كسرى أبو شروان كى ينسخ هذا الكتاب العظيم ، وقد فعل ، وطلب من الملك أن تكتب سيرته ، وعمله الجليل فى نقل هذا الكتاب وغيره ، وتضاف الى الكتاب ، فكلف وزيره بزرجمهر أن يفعل ذلك ففعل ، وكان من ذلك الباب الخامس .

٤ — باب عرض الكتاب أو غرض الكتاب . وهو من عمل ابن المقفع ؛ بين فيه سبب اختيار العلماء لهذا النوع من القصص الحيوانية وسيلة لتعليم الأخلاق .

ذلك أنهم حين وضعوا هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير وجدوا متصرفا فى القول وشعابا . وأما الكتاب فجمع حكمة وهوا فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه .

٥ — باب برزويه — ترجمة بزرجمهر بن البختكان .

وهو تاريخ حياة برزويه ، وكأنه هو الذى يقصه ، وفيه بيان لعمله فى مداواة الناس ، وموقفه من المرضى . وابتغائه الآخرة بعمله ، وسعيه فى طلب دين غير دين آبائه يسعده ، فلم يجد ، فآثر الصلاح والنسك ، والزهادة فى الدنيا ، حتى أرسله الملك الى بلاد الهند وانتسخ الكتاب .

---

(١) من يرجع الى تاريخ كسرى انو شروان ، يرى انه كان مشجعا للحركة العلمية والأدبية وللاصلاح العام ، وقد نقل فى ايامه كثير من كتب اليونان الى الفهلوية .

٦ — ثم تأتى أبواب الكتاب ، وأولها باب « الأسد والثور » . وفيه بيان مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال ، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء

٧ — وباب « الفحص عن امر دمنة » وهو منسوب الى ابن المقفع . وقد طلب فيه دبشليم من بيدبا أن يحدثه عما آل اليه أمر الواشى الماهر المحتال ، « وهو دمنة » ، الذى أفسد بين الأسد والثور .

٨ — ويليه باب « الحمامة المطوقة » . وفيها حديث عن اخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض .

٩ — ويليه باب « البوم والغربان » ، وفيه مثل العدو الذى لا ينبغى أن يغتر به ، وان أظهر تضرعا وملقا .

١٠ — باب « القرد والغيلم » ، وفيه مثل الرجل الذى يطلب الحاجة . فاذا ظفر بها أضاعها .

١١ — باب « الناسك وابن عرس » ، وفيه مثل الرجل العجلان فى امره من غير روية ولا نظر فى العواقب .

١٢ — باب « الجرذ والسنور » . وفيه مثل رجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب ، فأشرف معهم على الهلاك ، فالتمس النجاة والفرج ، بموالاة بعض اعدائه ومصالحته . فسلم من الخوف وأمن ، ثم وفى لمن صالحه منهم .

١٣ — باب « ابن الملك والطائر فنزة » . وفيه مثل أهل الترات الذين لابد لبعضهم من اتقاء بعض .

١٤ — باب « الاسد والشغبر الناسك » وهو ابن آوى . وفيه مثل الملك الذى يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم ، أو جفوة من غير ذنب .

١٥ — باب « ايلاذ وبلاذ وايراخت » . وفيه يضرب بيدبا مثلا فى الأشياء التى يجب على الملك أن يلزم بها نفسه ، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه ويكون ذلك رأس أمره وملاكه : « أبا لحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود ،

١٦ — باب « اللبؤة والاسوار والشغبر » . وضرب فيه مثلا فى شأن من يدع ضر غيره اذا قدر عليه ، لما يصيبه من الضر ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره .

١٧ — باب « الناسك والضيف » . وضرب فيه مثل الذى يدع صنعه الذى يليق به ويشاكله ، ويطلب غيره فلا يدركه ، فيبقى حيران مترددا .

١٨ — باب « السائح والصائغ » ، وضرب فيه مثلا فى شأن الذى يصنع المعروف فى غير موضعه ويرجو الشكر عليه .

١٩ — باب « ابن الملك وأصحابه » . وقد بدأه دبشليم بقوله لبيدبا : « قد سمعت هذا المثل . فان كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيه وتثبته فى الأمور كما يزعمون ، فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير ، والرجل الحكيم قد يصيبه البلاء والضر . قال بيدبا : كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه . كذلك العمل إنما هو بالعلم والعقل والتثبت ، غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك . ومثل ذلك ابن الملك وأصحابه » .

٢٠ — وآخر الأبواب باب « الحمامة والثعلب ومالك الحزين » وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

وليس من المؤكد أن هذه النسخة المشهورة التى طبعتها المطبعة الأميرية مرات كثيرة. هى التى كتبها ابن المقفع (١) . فهناك نسخ مختلفة ، وبعض الكتب القديمة تنقل قطعا من كليلة ودمنة تخالف فى عباراتها هذه النسخة ، وترتيب أبواب الكتاب مخالف لكتاب « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » لابن الهبارية . فليس فيه باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين . وباب

---

(١) النسخة التى وجدها الدكتور عزام فى اياصوفيا باسطنبول ونشر عنها نسخة المحققة ترجع إلى سنة ٦١٨ هـ وهى أقدم نسخة .

ايلاذ وبلاذ وايراخت سماه ابن الهباريه « هبلار وبيلار وايراخت » وفى بعض الأمثال اختلاف .

والأبواب التى عدها جورجى زيدان تختلف شيئا ما عما فى النسخة المشهورة ؛ فباب ملك الفيران غير موجود فيها مثلا (١)

ويهمنا الآن أن نتحدث عن الكتاب من حيث .

١ ـ قصص الحيوان فيه ـ نرى أن أكثر أبوابه قد سميت بأسماء الحيوان وأن أكثر قصصه وردت على ألسنة الحيوان . وأبطالها من البهائم أو السباع أو الطير . حتى الأبواب التى تعتبر مقدمة كباب غرض الكتاب لاتخلو من كثير من قصص الحيوان ، تساق توضيحا لحكمه أو موعظة وتقرر مبدأ سياسيا أو إصلاحا اجتماعيا ، أو تبين حقا من حقوق الصداقة ، أو واجبا من واجبات السلوك الإنسانى ففى « باب الحمامة المطوقة أنها وقعت هى وصاحباتها فى شرك صياد ، فأشارت عليهن بالتعاون ، فطرن جميعا مرة واحدة فاستطعن أن يحملن الشبكة ويطرن فى الجو ، فتتبعهن الصياد فأشارت عليهن أن يتخذن طريقا فوق العمران بدلا من الفضاء ليخفى طريقهن على الصاد ، ففعلتهن هذه الحيلة وأيس الصياد منهن وانصرف . فذهبت بهن إلى جرذ صديق لها وناديته باسمه ليخرج ويقطع الشبكة ، فخرج وسألها عما أوقعها فى هذه الورطة . فأجابته بأن ذلك قدر لا يمتنع منه شىء . واراد أن يبدأ بقطع العقد الذى فيه المطوقة فقالت له : « ابدأ بقطع عقد سائر الحمام وبعد ذلك أقبل على عقدى فعجب من أمرها لأنها تؤثر غيرها على نفسها . فأخبرته أنها تخشى إن بدأ بتخليصها أن يمل ويكسل عن تخليص ما بقى من الحمام .

وفى هذه القصة الصغيرة فائدة التعاون وإعمال الفكر للخلاص من المأزق ثم فائدة الأصدقاء عند الشدة ، وبيان أن الخير والشر مقدران . وفيها مثل

---

(١) ج ٢ ص ١٢٢ من تاريخ آداب اللغة العربية . ومقدمة الدكتور عزام

للايثار الذى حمل الحمامة على دعوة الجرذ إلى أن يؤخر تخليصها ويبدأ بصاحباتها .

٢ ـ الاستطراد من قصة إلى قصة ، حتى يجتمع من ذلك عدد من القصص قد لا يرتبط بالعنوان منها إلا القليل : ففى باب الحمامة المطوقة قصتها فى الشرك . ولكن أصل القصة غراب رأى صيادا قبيح المنظر بشبكته وعصاه فطار منه وذعر ، ثم تبعه حتى نصب الشبكة ووقع الحمام فيها ، ثم تبع الحمام إلى الجرذ حتى خلصهن ، فرغب فى مصادقة الجرذ ، فأبى عليه هذه الصداقة أولا لما بينهما من العداوة . وبعد جدل طويل تصالحا ، ورأى الغراب ان جحر الجرذ قريب من طريق الناس فنقله ، إلى مكان معتزل ، له فيه صديق من السلاحف ، وهو مخصب من السمك ، فلما بلغ العين التى فيها السلحفاة ذعرت منه ، ثم عرفت أنه صاحبها ، وأخبرها الغراب بقصة الجرذ مع الحمام فعجبت من عقل الجرذ ووفائه . وسألته عما ساقه إلى هذه الأرض ؟ فحدثهما باخباره لما كان فى بيت الناسك وجاءه ضيف ، وكان الفأر يثب إلى سلة الطعام والناسك يصفق بيده ليطرده ، فظن الضيف أن الناسك يسخر منه ، فاخبره أنه إنما يفعل ذلك لينفر جرذا عن سلة الطعام ، وأنه ضاق به ذرعا . فقال له الضيف لقد ذكرتنى قول الذى قال «لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور» فسأله الناسك عن القصة . فقال له : نزلت برجل ضيف فاوبت عنده فسمعته يقول لامرأته فى آخر الليل إنه سيدعو رهطا ليأكلوا عنده . فعجبت من ذلك وليس عنده فضل عن عياله ، وهو لا يبقى شيئا ولا يدخره .

فاخبرها زوجها أن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب [1] وقص عليها قصة الرجل القانص الذى رمى ظبيا فاعترضه خنزير برى وهو

---

(١) هذه القصة وقصة السمسم موجودتان فى الباب الثانى من كتاب البانجا تانترا (مقدمة أنوار سهيلى ترجمة Eastwick)

راجع به إلى منزله ، فصربه بسهمه لكن الخنزير أدركه فضربه ضربة قاتلة فوقعاميتين . فاتى عليهم ذئب ، ففكر فى أن يبدأ بوتر القوس ، ويدخر الرجل والظبي والخنزير . فلما انقطع الوتر أصابه طرف القوس فى حلقه فمات .

فعلمت الزوجة أن الجمع والادخار وخيم العاقبة ، وكان عندها أرز وسمسم فأخذت تعد العدة للضيوف . وقشرت السمسم ونشرته فى الشمس ليجف فجاء كلب فعاث فيه ، فاستقذرته المرأة وقايضت به سمسما غير مقشور ، مثلا بمثل . فقال رجل رآها تفعل ذلك : لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور .

ثم يعود الحديث على لسان الجرذ للسلحفاة والغراب ، فيخبرهما أنه لما حفر ضيف الناسك جحر الفأر وجد كيسا فيه مائة دينار ، فأخذها الضيف وأخبر الناسك أن الجرذ سيصاب بالعجز ؛ لأنه ما كان يقوى على الوثوب إلا بهذه الدنانير ، وكان ما ظنه ضيف الناسك .

وأخبر الجرذ السلحفاة والغراب أن الجرذان التى كانت معه انصرفن عنه ، لما رأين عجزه عن أن يحضر لهن من السلة ما كان يحضر من الطعام . ففكر فى أن يسترد بعض الدنانير عسى أن يراجعه بعض أصدقائه . فشعر به الضيف ، فضربه على رأسه ضربة موجعة ، وكرر المحاولة وتكررت الضربات ، فكره المال كرها شديدا ، وترك بيت الناسك إلى البرية . وفى ذلك المكان جاءت اليه المطوقة ، وصادقه الغراب وحمله إلى السلحفاة .

ولما فرغ الجرذ من كلامه حدثته السلحفاة بكلام رقيق ، وأثنت على كلامه وساقت كثيرا من الأمثال والحكم .

وجاءهم فى هذا المكان ظبي فر من الصيادين فخافوا منه أولا ، ثم أنسوا به وأقام معهم . ثم غاب يوما فأرسلوا الغراب لينظر ، فرآه فى حبائل قانص . فأسرع الجرذ إليه ليقطع الحبائل ، ولحقت بهما السلحفاة . ووافاهم الصياد عند انتهاء الجرذ من قطع الحبائل ، فعدا الظبي ، وطار الغراب ، واختفى الجرذ ، ولم يبق

إلا السلحفاة ، فربطها القانص ففكروا فى تخليصها ، بان يقع الظبي بمنظر القانص كأنه جريح ويحط الغراب عليه ، فإذا طمع القانص فى إدراكه جرى ووقع ثانية والغراب فوقه ، حتى يبعداه عن السلحفاة ، وفى أثناء ذلك يقرض الجرذ حبالة السلحفاة ويهرب بها ، ففعلن ، ثم يئس القانص من الظبي ، فعاد إلى السلحفاة فلم ير إلا حبائله مقطعة ؛ فقال هذه أرض جن أو سحرة ، وخرج منها ، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة فى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه .

فبطل الباب شيء غير الحمامة المطوقة ، قد يكون الغراب أو الجرذ ؛ وقد اجتمع من القصص الاستطرادية مايزيد على ست : كالغراب مع الجرذ ، والجرذ فى بيت الناسك ، وقصة الذئب الذى مات بسبب طمعه ورغبته فى الادخار وقصة السمسم المقشور بغير المقشور ، وقصة التجاء الظبي إلى هؤلاء وصداقتهم له الخ ، ثم قصة وقوع السلحفاة فى شرك القانص وقصة تخليصها . وربما كانت القصص أكثر ارتباطا بالفكرة الخلقية فى هذا الباب منها بالعنوان

وإذا رجعنا إلى باب الأسد والثور وجدنا فيه من القصص الاستطرادية ما يزيد على خمس عشرة قصة ، بعضها قصير وبعضها طويل ، وقد لا يرتبط بعضها ببعض إلا برباط الاستطراد . وهذا الاستطراد قد ينسى القارىء القصص الرئيسية . وكثيرا ما يجد نفسه فى حيرة لايدرى كيف تجمعت هذه القصص ، ولا يستطيع أن يتذكر الصلات التى بينها لضعفها ، ويقلب الصفحات التى مضت ليستعيد أصل الحكاية ويرى كيف تطورت . وقد يمل هذا النوع من الحكايات .

ولولا أسلوب ابن المقفع الذى يرضى الخاصة ومحى البلاغة لضاق به الخواص أيضا .

وهذا يخرج ابن المقفع عن أن يكون قصصيا من الطراز الذى يملك نفوس سامعيه ، ويحملهم على الاستغراق فى قصصه .

ومما يثقل على القارىء أن ابن المقفع جعل نفسه واعظا أو خطيبا أو حكيما فى كل قصصه ، فتحدث ما استطاع عن الأخلاق والفضائل والعيوب الشخصية والعامة ، حتى كان ينسى القصة ويستمر صفحة أو أكثر فى مراعظه.

٣ — النظام الذى بنى عليه القصص فى هذا الكتاب هو أن يبدأ الملك دبشليم — فيما عدا الباب الأول — بقوله للفيلسوف « عرفت هذا المثل » مشيرا إلى ماسبق فى الباب الذى قبله ؛ أو عرفت مثل كذا فاضرب لى مثل كذا ؛ فيجيب الفيلسوف أو بيدبا — بقول عام يشبه أن يكون حكمة ، لايخرج فى معناه عما سأل عنه الملك ، ويشير إلى القصة ، فيقول له الملك : « وكيف كان ذلك » . فيقول الفيلسوف : « زعموا » ثم يأخذ فى سرد القصة ؛ ولنأخذ لذلك مثلا أول باب الحمامة المطوقة :

« قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب ، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك . فحدثنى إن رأيت ؛ عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض .

« قال الفيلسوف . إن العاقل لا يعدل بالاخوان شيئا ؛ فالاخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمؤاسون عندما ينوب من المكروه . ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبى والغراب . قال الملك وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا زعموا أنه كان بأرض « سكاوندجين » عند مدينة داهر ، مكان كثير الصيد » ... ويستمر فى قصصه عن الحمامة والغراب والجرذ والسلحفاة والظبى حتى ينتهى كما قدمنا .

٤ — يلاحظ أن الأبواب الاولى طويلة والاستطراد فيها كثير فباب الأسد والثور من صفحة ٩١ إلى ١٥٣ — والحمامة المطوقة ١٧٧ — ٢٠٠ . والقرد والغيلم من ٢٠٠ — ٢٢٢ ثم تأخذ الابواب فى الايجاز بسبب قلة

الاستطراد . وبعضها لا يتجاوز ثلاث صفحات، كباب الناسك وابن عرس والناسك والضيف .

ولكن ابن المقفع يمتاز بأنه :

١ ـ أول من طرق هذا النوع فى الأدب العربى ونجح فيه نجاحا عظيما .

٢ ـ وأنه قصصى ممتاز فى القصص القصيرة التى يقصها استطرادا .

ولو رأينا قصصه منفصلا بعضها عن بعض . واستقلت بعناوين لكانت خيرا .

٣ ـ وأنه حكيم أو فيلسوف أخلاقى، يحيد الحديث عن الفضائل والرذائل ويحللها ويشرح مضارها أو منافعها للناس بطريقة أدبية عالية ، وقد يزيد على القدر المناسب للقصة الأصلية ،فينقلب ذلك عيبا فى القصة ، فقد جاء فى باب الاسد والثور . أن كليلة نصح دمنة عندما أراد الاتصال بالاسد فقال له :

« فإنى أخاف عليك من السلطان فان صحبته خطرة ، وقد قالت العلماء: إن أمورا ثلاثة لا يجترىء عليهن إلا أهوج . ولا يسلم منهن إلا قليل ؛ وهى صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى ، الذى فيه الثمار الطيبة ، والجواهر النفيسة . والأدوية النافعة ؛ وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف ، فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد »[1]

٤ ـ وهو صاحب أسلوب من الطراز الأول فى الأدب العربى . يعنى بالمعنى ، ويختار من الألفاظ أشرفها وأبعدها من الابتذال ،ويزهد فى الصناعة اللفظية إلا ما جاء عفوا،ويرتب المعانى على طريقة المناطقة،مع العناية بتوضيحها والوفاء بها ، من غير حشو ولا فضول ؛ ويغلب عليه تنويع العبارة ، وتقطيع

---

(١) ص ١٠١

الجمل، والمزاوجة بين الكلمات . أما الحكم المأثورة والأمثال السائرة فكثيرة فى كتابه هذا . وإذا كان طبع ابن المقفع ميالا الى الحكمة والنصيحة فان كتاب كليلة ودمنة كان أصلح ميدان لبث هذه الحكم والأمثال .

وقد تقرأ الباب الطويل من كليلة ودمنة فلا تعثر فيه على سجعة مستكرهة ، أو ازدواج متكلف ، أو تقفية نابية . وكان يميل الى التقسيم فى التعبير ، ويربط بين اجزاء الفقرة المتعددة الجمل برباط من التسلسل المنطقى .

على أن إيثاره الايجاز قد يؤدى به الى الغموض ، حتى تحتاج الفقرة إلى قراءتها أكثر من مرة كى تفهم كقوله [١] « وقد كان يقال : ان من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى ، وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط . فاذا كانت الموجدة عن علة كان الرضا موجودا والعفو مأمولا ؛ وإذا كانت عن غير علة انقطع الرجاء ؛ لأن العلة إذا كانت الموجدة فى ورودها كان الرضا مأمولا فى صدورها » .

وقد يميل الى الأسهاب أحيانا كقوله [٢] : « وقد قيل لاخير فى القول إلا مع العمل ، ولا فى الفقه إلا مع الورع ولا فى الصدقة الا مع النية ، ولا فى المال إلا مع الجود ، ولا فى الصدق إلا مع الوفاء ، ولا فى الحياة إلا مع الصحة ، ولا فى الأمن إلا مع السرور » .

كما يستعين على توضيح معانيه بالتشبيه الجيد كقوله [٣] : « واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش ويزيد الأحمق طيشا ؛ كما أن النهار يزيد كل ذى نظر بصرا ، ويزيد الخفاش سوء نظر على نظره »

وقوله فى قلة المال [٤] : « ما الاخوان ولا الأعوان ولا الاصدقاء إلا بالمال ؛ ووجدت من لامال له إذا أراد أمرا قعد به العدم عما يريده ، كالماء الذى

---

(١) باب الأسد والثور ص ١٢٩

(٢) ص ١٤٤ (٣) ص ١٤٥ (٤) ص ١٩٠

يبقى فى الأوديه من مطر الشتاء ، لايمر إلى نهر ولا يجرى إلى مكان ، فتشربه أرضه . ووجدت من لا اخوان له ، لا أهل له ، ومن لاولدله لاذكرله ، ومن لامال له لاعقل له ، ولا دنيا ولا آخرة له : لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه ، فان الشجرة النابتة فى السباخ المأكولة من كل جانب ، كحال الفقير المحتاج إلى ما فى أيدى الناس . ووجدت الفقر رأس كل بلاء ، وجالبا إلى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة . ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا ، وأساء الظن به من كان يظن فيه حسنا ؛ فان أذنب غيره كان هو للتهمة موضعا . وليس من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير ذم ، فان كان شجاعا قيل أهوج ، وإن كان جوادا سمى مبذرا ، وإن كان حليما سمى ضعيفا ، وإن كان وقورا سمى بليدا » .

٥ — وهو أديب الخاصة : كان ابن المقفع يكتب أدبه للخاصة من الحكماء والعلماء والأعيان . وسبب ذلك انه قد نشأ نشأة أرستقراطية فكان أبوه واليا للخراج ، وهو عمل عظيم عندئذ . وكان هو عالى النفس بعيد الهمة وثابا إلى العلا ؛ وكان ولاؤه وولاء أبيه فى آل الأهتم من أشراف تميم ، كما كان اتصاله بالأعيان فى دولة بنى أمية وفى دولة بنى العباس . فكان ذلك كله سببا فى أن يفهم حسنات الخواص وعيوبهم . وكانت نفسه نزاعة إلى الاصلاح ميالة إلى التعمق فى دراسة الحياة الاجتماعية والنظم السياسية ، ترى ذلك فى اتجاهاته عند اختيار موضوعاته الأدبية للترجمة أو للانشاء [1] . ولا يطعن فى هذا أنه ترجم كليلة ودمنة . وهى قصص ترد على ألسنة الحيوان ، فيسارع إلى قراءتها أهل الهزل من الشبان » ؛ إذ أنه قد بين فى باب عرض الكتاب ما يجب على قارئه من تدبر لمعانيه ، واستبطان لقصصه ، وعمل بما ترمى إليه ، ووقوف عند كل مثل وكلمة ، وإعمال الروية فيها ليصل إلى الغرض الرابع من

---

(١) ضحى الاسلام حـ ١ ص ٢١٦

الكتاب ، وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » .

ومن أجل هذا كان أسلوبه عاليا .

ومما يتصل بما قدمناه ما قيل فى سبب ترجمة ابن المقفع لهذا الكتاب . قيل انه ترجمه وأراد به وعظ المنصور ، لما رأى من شدته وبطشه واحتكامه إلى السيف فى شأن كثير من الناس . ورأى أن رسالة الصحابة التى خاطب فيها أمير المؤمنين ـ المنصور ـ لم تؤت ثمرتها ، وأعجبه فى الكتاب أنه يشبه بيدبا مع دبشليم ، فيجب عليه النصح للملوك كما وجب على بيدبا .

كان ابن المقفع أول من أحدث هذا النوع من الأدب فى اللغة العربية وما زال إلى الآن خير من كتب هذا النوع فى اللغات الشرقية ويعتبر واحدا من ثلاثة اشتهروا أكثر من غيرهم فى باب الخرافات ، أولهم أيسوب ، وثانيهم ابن المقفع ، وثالثهم لافونتين .

مقلدوه فى القرن الثانى

وقد أحدث نشاطا فيمن جاءوا بعده من أدباء العصر العباسى ، فاتجهت أنظارهم إلى هذا النوع من القصة ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ ابن المقفع ، أو ضاعت آثارهم فلم يسعدوا بما سعد به من الشهرة فى هذا الباب (٢) ، ومنهم أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسى وقد خدم المنصور وابنه المهدى » . فاذا صح هذا كان كتاب ابن المقفع سريع الثمرة ؛ إذ الظاهر أن أبا سهل كان معاصرا له . وقد روى ابن النديم فى الفهرست (٢) أنه كان صاحب الفضل فى خزانة الحكمة أيام الرشيد ، وأن له عدة كتب نقلها من الفارسية إلى العربية ليس بينها نظم كليلة ودمنة . ولكن كشف الظنون (٣) فى عرض كلامه عن

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٣٢

(٢) ص ١٧٤ (٣) ج ٢ ص ٣٢٩

هذا الكتاب يقول : ثم نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهوازى ليحيى بن خالد البرمكى فى خلافة « المهدى سنة ١٦٥ هـ ، ونظمه أبوسهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد وزير المهدى أو الرشيد . فلما وقف عليه أجازه بألف دينار » . فاذا صح هذا كان عمله أول نظم لهذا الكتاب عرف فى تاريخ الأدب العربى . ونظمه ابان بن عبد الحميد للبرامكة أيضا كما نظمه على بن داود ، كاتب زبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد . ونظم بعضه بشر بن المعتمر (١) . وكل هذه المنظومات ضاعت إلا الأخيرة ، فقد رواها الجاحظ وليس فيها شىء من قصص الحيوان ، وكل مافيها إشارات إلى عجائبه وطباعه .

ونظم سهل بن هارون كتابا على مثاله سماه « ثعلة وعفراء » (٢) قلده فى أبوابه وأمثاله . وذكره ابن النديم فى البلغاء وقال انه شاعر مقل ، وعده فى الشعراء والكتاب ، وقال إنه كان يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، هو وعبد الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده ، وله كتاب « النمر والثعلب » .

وقال المسعودى عنه : « يزيد عليه — أى على كليلة ودمنة — فى حسن نظمه ؛ وقد صنفه للمأمون » . ومن كلام له فى كتاب « ثعلة وعفره » :

« اجعلوا أداء مايجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذى تجودون به من تفضلكم ؛ فان تقديم النافلة مع الابطاء فى الفريضة شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الروية مضر بالتدبير ومخل بالاختيار . فليس فى نفع تحمدبه ، عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة » (٣) .

---

(١) ج ٦ ص ٩٢ الحيوان للجاحظ . انظر ترجمته فى ذيل ص ١٠٦ من البيان والتبيين شرح السندوبى

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٥

(٣) عصر المأمون ج ٣ ص ٥٢ ، وأخبار سهل فى الأغانى ج ١٨ من ٢٩ - ٦١

كانت طريقة «سهل» طريقة سيدنا علي، وكذلك، قيل عن ابن المقفع: وكان عديم التكلف فيما يترجم، حتى يبدو كأنه من إنشائه، وكان فارسيا مثله، ومن بلدته، خوز، نفسها، وعراقي المنشأ أيضا. أهذا هو السبب في اتجاهه إلى هذا الأدب الذي بدأه ابن المقفع؟ ربما كان ذلك.[١]

ثم نظمه ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ في كتاب «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة».

ونظمه القاضي الأسعد بن مماتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦ لصلاح الدين الأيوبي وضاع نظمه[٢]. وجاء بعده عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني، من أهل القرن السابع للهجرة، فنظمه أو شيئا منه أو كتابا على مثاله، وسماه «درر الحكم في أمثال الهنود والعجم»[٣]. ثم نظمه جلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع. ومن نظمه نسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت وأخرى في المتحف البريطاني.

ومن الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كتاب «الصادح والباغم» لابن الهبارية، وكتاب «سلوان المطاع في عدوان الطباع» لأبي عبد الله محمد بن أبي قاسم، المعروف بابن ظفر. وكتاب «فاكهة الخلفاء ومنادمة الظرفاء»، وكتاب «مرزبان نامه» لابن عرب شاه». وفي كشف الظنون أن أبا العلاء المعري ألف كتابا اسمه «القائف» على مثال كليلة ودمنة، وهو في ستين كراسة، ولم يتم، وأن له كتاب «منار القائف» يتضمن تفسيره في عشرة كراريس[٤].

---

(١) عصر المأمون ج ٢ ص ٤٨ و ٥٠

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٨٤

(٣) في ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٢١ ان هذا الكتاب لابن الهبارية وأكمله الصاغاني، ومنه نسخ خطية في فينا وميونخ.

(٤) ج ٢ ص ١٣٣ تاريخ آداب اللغة العربية، وضحى الاسلام ج ١ ص ٢٢١

ونظمه ابان بن عبد الحميد للبرامكة أيضا . وفى كتاب الأوراق لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ترجمة لابان ، اورد فيها كثيرا من أخباره وأشعاره واتصاله بالبرامكة فقال (١) :

« أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفر مولى بنى رقاش من أهل البصرة شاعر مطبوع ، مقدم فى العلم بالشعر والحفظ له . قدم بغداد فاتصل بالبرامكة وانقطع إليهم ، وعمل لهم كتاب كليلة ودمنة فحسن موقعه منهم . ويقال إنه قلب الكتاب فى ثلاثة أشهر إلى الشعر ، وهو أربعة عشر ألف بيت . وذكر حمدان ابنه أنه كان يصلى ولوح موضوع بين يديه ، فاذا صلى أخذ اللوح فملأه من الشعر الذى صنعه ، ثم يعود إلى صلاته .

ويقول الصولى (٢) ... حدثنا حماد بن اسحق قال : ألزم يحيى بن خالد البرمكى أبان بن عبد الحميد دارا لايخرج منها ، حتى ينقل كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر ، فوهب له عشرة آلاف دينار . قال : ويقال : إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام أفصح منه إلا كتاب كليلة ودمنة ، فقال له ابان بن عبد الحميد ، أنا أعمله شعرا ليخف على الوزير حفظه ، فنقله إلى قصيدة عملها مزدوجة ، عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت فى ثلاثة أشهر ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ، وقال له جعفر بن يحيى : ألا ترضى أن أكون راويتك لها ! ولم يعطه شيئا . قال فتصدق بثلث المال الذى أخذه . »

وفى هذا الخبر إشارة إلى اهتمام البرامكة بهذا الكتاب ، وربما كان ذلك راجعا إلى تشجيعهم العام للحركة العلمية والأدبية فى زمنهم ؛ يضاف الى هذا أن الكتاب فارسى الأصل وابن المقفع فارسى ، كما كان ابان ، وكما كان البرامكة أيضا وقد يكون ماذكر عن الفضل بن نوبخت صحيحا ، ويحتمل كذلك أن نقل عبد الله بن هلال الأهوازى للكتاب كان باشارة من يحيى بن خالد ، وكأن

---

(١) ص ١ (٢) ص ٢

يحي جعل نظمه مباراة ، وأجاز عليها هؤلاء الناظمين ، وهم من الفرس .

وقد أورد الصولى منها أكثر من سبعين بيتا [١] بعضها من المقدمة وبعضها من « باب الأسد والثور » وجعلها كلها من هذا الباب ، وقد تتبعت هذه الأبيات وأصولها فى كليلة ، فوجدت أن ما اختاره الصولى لم يكن من موضع واحد ، وانه جمع بين الأبيات مع اختلاف مآخذها من الكتاب . فبدت للقارىء مفككة ؛ وقد أشار إلى شىء من ذلك المستشرق « هيوارث د ن » فى ذيل كتاب الأوراق عندما أورد البيت :

قال له السبع لقد سمعت وكل ماتقول قد فهمت

حيث يقول : « فالضمير فى « له » لم يتقدم مرجعه فى هذه الأبيات المختارة »

وقد أورد الصولى فى الكتاب نفسه (٢) مايدل على انه اختار هذه الأبيات من أماكن متفرقة ؛ وفى عبارته شىء من الاضطراب ، قال أبو بكر فى ختام هذه الأبيات .

« والله ما أدرى . لا ما اخترت ولا ماتركت ، ولو علمت حقيقة هذه القصيدة ماضمنت ما تضمنت ، لأنها قصص لايحسن بعضه إلا ببعض والاحسان فيها قليل . فقد أضربت عن ذكرها والاختيار منها . وفيما حكينا مما ذكرناه منها غنى وكفاية . »

وأحب أن أورد بعض الأبيات ومآخذها لنرى نوع الشعر الذى نظمه أبان ـ ومقدار تصرفه . ونتخذ هذه الأبيات أساسا للمقارنة عند الكلام على نظم ابن المبارية لها .

قال أبان :

الأهل والاخوان والأعوان عند ذوى الأموال حيث كانوا

---

(١) والأغانى لم ينقل منها إلا البيتين الأولين فى ترجمة ابان ج ٢٠

(٢) ص ٥٠ كتاب الأوراق .

والمال هادى الرأى والمروءة ... وهو على كل الأمور قوه
والمال فيه العز والجمال ... والذل حيث لا يكون المال
وربما دعا الفقير فقره ... إلى التى يحبط فيها أجره
فيخسر الدين كما كان خسر ... دنياه ، والخسران مالا ينجبر
وليس من شىء يكون مدحا ... لذى الغنى إلا يكون برحا
على الفقير ، ويكون ذما ... كذاك يدعى وبه يسمى
فان يكن نجدا يقولوا أهوج ... كذاك عند الحرب لا يعرج
وهو إذا كان جوادا سيدا ... سمى ، للفقر ، مضيعاً مفسدا
أويك ذا حلم يقل ضعيف ... أو يك بساما يقل سخيف

هذه الأبيات العشرة من باب الحمامة المطوقة ، وإن كانت موجودة فى كتاب الأوراق مع غيرها من الأبيات تحت عنوان باب الأسد والثور . وليس هناك أبواب باقية من نظم أبان غير هذا الباب . والأصل الذى نقلت عنه هذه الأبيات من كتاب كليلة ودمنة جاء فى كلام الجرذ الذى هجره إخوانه ، لما ضعفت قوته عن الصعود إلى السلة لإحضار الطعام ، وضعفت قوته لأن ضعف الناسك هدم جحره وأخذ منه كيسا من الدنانير ؛ ظنا ، ان هذه الدنانير كانت مصدر قوته ، وقد صدق ظنه ، قال الفأر لما جفاه إخوانه عندئذ (١) :

« وما الاخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمرا قعد به العدم عما يريده ؛ كالماء الذى يبقى فى الأودية من مطر الشتاء ، لا يمر إلى نهر ولا يجرى إلى مكان ، فتشربه أرضه » .

والذى يوازن بين هذه الفقرة وبين الأبيات الثلاثة الأولى يرى أن البيت الأول كالجملة الأولى ، وربما كان أبان موفقا فى هذا النظم . والبيت الثانى

---

(١) كليلة ص ١٨٩

قد تجاوز هذه الفقرة فى الشطر الأول وعاد اليها فى الشطر الثانى . وقوله : « وهو على كل الأمور قوة » عكس قول ابن المقفع « قعد به العدم عما يريده » وهو مفهوم منه .

أما التشبيه « على غموضه » فليس له ذكر فى أبيات أبان .

وليس من العدل أن نتهم أبان بالتقصير إذ أن هذه الأبيات مختارات وقد يكون فيما تركه الصولى ما يساوى الموجود عند ابن المقفع ، أو قد تكون الطبعة التى عندنا مخالفة للتى نقل منها ابان .

ويتضح مما تقدم :

١ — الدقة فى النقل عن ابن المقفع . فهذه الأبيات الخمسة الأخيرة تكاد تساوى النثر عند ابن المقفع وان اختلفت الألفاظ .

٢ — ليس فى النظم تلك القوة التى نحس بها فى نظم الحكم أو القصص إذا كان الشاعر غير مقيد بالنقل عن كتاب . وليس أبان من الضعف فى الشعر الى هذا الحد الذى نراه هنا .

٣ — لا ندرى شيئا كثيرا عمن نظم هذه القصص فى القرن الثانى ، ولم يبق لنا من نظم أبان إلا هذه الأبيات القليلة التى تزيد على السبعين قليلا ، مع أن الصولى يقرر ان منظومة أبان حوالى أربعة عشر الف بيت » .

ولو بقى لنا شىء كثير لاستطعنا الموازنة . غير اننا نستطيع أن نقرر ، مما بقى لنا ، انه التزم فيها طريقة معينة فى البحر والقافية ، فاختار الرجز لسهولته وكثرة ما يدخله من زحافات وعلل تجعل من اليسير على الشاعر أن يجول فى ميدان واسع عند اختيار الكلمات التى يؤلف منها بيته ، بحيث يكون قريبا من المعنى الأصلى . واختار القافية المزدوجة التى يستطيع أن يغيرها من بيت إلى بيت . وفى هذا تيسير على الناظم أيضا ، لانه يستطيع أن يتحرر من قيود القافية الواحدة التى يكون مجال الاختيار فيها محدودا .

٤ — كان أبان أستاذا فى ذلك لابن الهبارية وغيره ممن نظموا — وليس

عندنا إلا نظم ابن الهبارية . وربما كانت طريقته هذه توجيها للذين نظموا العلوم . وأبان أول من استخدمها ، فى نظم :

« قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان عن فم الرواة »

وليس من غايتنا أن نحبذ نظم العلوم ، فإن العلوم أبعد الأشياء عن القيود الكلامية ؛ ولكننا نقرر هنا ما حدث ، ونحاول أن نبين فضل السابق إن كان له فضل .

وقد نظم قصص الحيوان فى عصرنا هذا كثير من الشعراء فجاء أرق وألطف من نظم أبان ومن نظم ابن الهبارية . وكتب المحفوظات ، وكتب القصص الحيوانية ؛ كالعيون اليواقظ وآداب العرب وقصص شوقى ، تشهد بأن النظم قد رق على أيدى المحدثين واستطاعوا أن يأتوا بقصائد قصصية من هذا النوع بلغوا فى تجويدها حدا كبيراً .

الفصل العاشر

تداعي الحيوانات على الإنسان

هذه الرسالة ألفتها جماعة « إخوان الصفا » [1] وطبعها « فريدرخ دتريصى [2] في برلين سنة ١٨٧٩ م » وجعل عنوانها « في تداعي الحيوانات على الإنسان عند ملك الجن »

وخلاصتها : أن بني آدم لما سكنوا الأرض وأمنوا فيها سخروا الحيوان لخدمتهم ، وحبسوه في ديارهم ، وفر منهم إلى البراري كثير من الحيوانات فطاردوها فيها واحتالوا لصيدها ، وهم يعتقدون أنها عبيدهم هربت وطغت .

وبعث محمد صلى الله عليه وسلم فأسلم طائفة من الجن . وبقوا كذلك حتى ولي عليهم ملك منهم اسمه « بيوراسب الحكيم » ولقبه « شاه مردان » . وكان دار مملكته في جزيرة طيبة الهواء والتربة والأنهار والثمار ، يقال لها « بلاصاغون » في وسط البحر الأحمر مما يلي خط الاستواء [3] .

---

(١) تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري في البصرة . والمشهور من أمرها أنها كانت جماعة فلسفية من حيث التفكير شيعية من حيث العقيدة ، ثائرة على النظام السياسي القائم ، يريدون أن يستبدلوا به غيره . يعظمون الأنبياء والفلاسفة ورعاة الدين من كل ملة ، ويمزجون في رسائلهم الفلسفة بالدين ويضمنون هذه الرسائل أكثر ما عرف في ذلك العصر من مسائل الفلسفة والرياضة والمنطق والطبيعيات والإلهيات ويحاولون نقد المجتمع ونظامه ، والتفكير السائد فيه نقداً لاذعاً .

(٢) مستشرق ألماني (١٨٢١ — ١٨٨٨ م)

(٣) هذا المكان موضع مختار لكثير من كتاب القصص كما في ألف ليلة وفي حي بن يقظان .

وطرحت العاصفة يوما مركبا ، إلى ساحل تلك الجزيرة فخرج من فيه من التجار والصناع وأهل العلم . واستطابوا الحياة فيها ، وأخذوا يتعرضون لحيوانها ، فنفر منهم ، فجدوا فى طلبه لاعتقادهم أنه عبيد لهم . فهرب منهم الحيوان ، وشكا أمرهم إلى ، بيوراسب ، ملك الجن ، فدعا بنى الإنسان إلى حضرته وأكرم وفادتهم ثم سألهم على لسان ترجمانه عما جاء بهم ، فأخبروه أنهم سمعوا بعدله وكرمه ، فجاءوا يطلبون حكومته وعدله ، ويخاصمون عبيدهم الآبقين بين يديه . فسألهم حجتهم ، فقال زعيم الإنس : لنا دلائل شرعية وحجج عقلية . وقام خطيب من الإنس من أولاد العباس رضوان الله عليه فبين تلك الحجج من القرآن ، واستغفر الله ونزل .

ثم دعا الملك البهائم والأنعام للرد ، فقام زعيمها وهو البغل ، فبين أن الله خلق الأكوان آمنة عامرة ، ثم خلق الإنسان فى الأرض لعمارتها ؛ وحفظ الحيوان والانتفاع به . ورد على ما جاء به الإنس من آيات ، وقال إنه ليس فى شىء منها دلالة على ما زعم الناس من أنهم أرباب والبهائم عبيد . وشكا ما أصابهم من ظلم واستعباد بعد ظهور الناس على الأرض ، ورفض مايقوله الناس عن سيادتهم للحيوان .

ودعا الملك طوائف من قضاة الجن وعدولها وفقهائها ، ومن الجنود والأعوان ، لاستماع رأى كل من الفريقين ، والفصل بينهما . وجاء كل فريق بحجته .

وخلا الملك ببعض وزرائه وقضاته وسألهم رأيهم . ورأى رئيس الفقهاء أن تستكتب البهائم قصة ما تلقى من جور بنى آدم ، ويفتى فيها الفقهاء ، وسيحكم القاضى لهم ، إما بالبيع أو بالعتق أو بالتخفيف والإحسان إليهم . فإن لم يفعل بنو آدم ماحكم به القاضى ، وهربت هذه البهائم فلا وزر عليها ، ووافقت جماعة الجن على ماقال ، إلا صاحب العزيمة من آل بهرام فإنه رأى أن يأمر الملك هذه البهائم والأنعام الأسيرة أن تهرب فى ليلة

واحدة كما هرب الوحوش . وأن تعاونها الجن فى ذلك ، بفك قيودها وكسر الأبواب المغلقة عليها .

ولكن قائلا منهم حذرهم عداوة الأنس وذكرهم بما جرى بين آدم وبنى الجان فى الدهور السالفة .

فسأله الملك أن يقص شيئا من هذا ، فقص عليه قصة الخلق والعلاقة بين آدم وإبليس ، وإبائه السجود له ، فطرده الله من الجنة ؛ فنشأت العداوة بين بنى آدم وبنى الجن من ذلك الوقت إلى الآن .

واستعرض تاريخ العلاقة بين الجن والأنس إلى ان بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأسلم بعض الجن وصلح الأمر بينهما . ثم قال حكيم الجن لقومه : لاتتعرضوا لهم ولا تفسدوا الحال بينكم وبينهم ولا تحركوا الاحقاد الساكنة ولا تثيروا العداوة القديمة المركوزة فى الطبائع والجبلة ، فإنها كالنار الكامنة فى الاحجار تظهر عند احتكاكها .

وجمع الملك مجلس القضاء أكثر من مرة ، وتحدث فيها الحيوان والناس وبين كل حجته . وعرض لحجة الآخر فدحضها . حتى قال خطيب من الحجاز إن الناس يمتازون على غيرهم بالخلود والبقاء ، وعندئذ سلم الجن والحيوان بالفضل للناس :

« فأمر الملك أن تكون الحيوانات بأجمعها تحت أوامرهم ونواهيهم ، ويكونوا منقادين للانس . فقبلوا مقالته ، ورضوا بذلك ، وانصرفوا آمنين فى حفظ الله تعالى وأمانه » .

وقد ختمت الرسالة بقول اخوان الصفا :

« ونحن قد بينا فى هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب ، على لسان الحيوانات ، فلا تظن بنا ظن السوء ، ولا تعد مقالتنا لعبة الصبيان ومخرفة الاخوان ، لأن عادتنا جارية على أن نبين الحقائق بألفاظ وعبارات على وجه الإشارات ، وتشبيهات على لسان الحيوانات ، ومع هذا لانخرج عما

نحن فيه ، عسى أن يتأمل المتأمل فى هذه الرسالة ، ويتنبه من نوم الغفلة ، ويتعظ من مواعظ الحيوانات وخطبهم ، ويتأمل كلامهم وإشاراتهم ، لعله يفوز بالموعظة الحسنة . وفقكم الله ايها الاخوان لاستماعها ، وفهم معانيها ، وفتح قلوبكم ، وشرح صدوركم ، ونور ابصاركم لمعرفة اسرارها ، ويسر لكم العمل كما فعل بأوليائه وأصفيائه وأهل طاعته ، إنه على ما يشاء قدير ، وهو حسبنا ونعم النصير . »

(١) تضمنت هذه الرسالة كثيرا من آراء اخوان الصفاء فى الخلق منها . أن البهائم والجن أقدم من الإنسان . وأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شىء على صورة مخصوصة لحكمة ، كما بين ذلك زعماء الحيوان (١) ، وأن من يعيب الصنعة فقد عاب الصانع . وقد ورد فى قول زعيم البهائم : « تجد كل حيوان جعل الله له من الأعضاء والمفاصل والأدوات بحسب حاجته إليه ، لجر منفعة أو دفع مضرة ، وإلى هذا المعنى أشار موسى عليه السلام فى سورة طه ، قالَ : رَبُّنَا الذى أعطى كلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ثم هدى » (٢)

(٢) وفى هذه الرساله صورة من علم إخوان الصفا بطبائع الحيوان وصفاته ومساكنه ، والامثلة على هذا كثيرة منها ماجاء فى حديث ملك النحل إذ يقول (٣) : « وممـا خصنا به وأنعم به علينـا أن جعل خلقة صورتنا وهياكلنا وجميل أخلاقنا ؛ وحسن سيرتنا ، وتصاريف أمورنا ، عبرة لأولى الالباب ، وآية لأولى الابصار ، وذلك أنه خلق لى خلقة لطيفة ، وبنية نحيفة ، وصورة عجيبة . بيان ذلك أنه جعل بنية جسدى ثلاث مفاصل محزوزة فجعل وسط جسدى مربعاً مكعبا ، ومؤخر جسدى مدمجا مخروطا ، ورأسى مدوراً مبسوطا ، وركب فى وسطى أربعة أرجل ويدين ، متناسبات المقادير كأضلاع الشكل المسدس فى الدائرة ، لاستعين بها على القيام والقعود

---

(١) ص ٥ (٢) ص ٧ ، ٨ ، ٩ (٣) ص ٨٦

والوقوع والنهوض ، وأقدر أساس بناء منازلى وبيوتى على أشكال مسدسات مكتنفات كى لايدخلها الهواء فيضر بأولادى أو يفسد شرابى . . . .

ومن الأشياء العجيبة وصفهم للتنين والعنقاء[١]. وعلمهم العظيم بصفات الناس وأعمالهم وصفات بلادهم ، كما جاء فى خطاب الخطباء من بنى آدم فى أكثر من موضع .

(٣) وهم متأثرون بالفلسفة اليونانية ، ومن ذلك ما جاء على لسان فيلسوف من فلاسفة الجن ، إذ قال لملكه[٢] : « واعلم أيها الملك الحكيم أن هذه الصور والأشكال والصفات التى تراها فى عَالمَ الأجسام ، وظواهر الاجرام ، هى مثالات وأشباح وأصنام لتلك الصور التى فى عَالمَ الأرواح غير أن تلك نورانية شفافة ، وهذه ظلمانية كثيفة ، ومناسبة هذه إلى تلك كمناسبة التصاوير التى على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والاشكال التى عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور فى عَالم الارواح محركات وهذه متحركات ... وهذه محسوسات وتلك معقولات ، وتلك باقيات وهذه فانيات باليات ، زائلات فاسدات . » فهذه آراء أفلاطون المعروفة بنظرية « المثل »[٣] .

وفى الكتاب كثير من الشواهد القرآنية ، وكثير من طرق الاستدلال الدينية ، يوردها خطباء الجن والإنس والحيوان تأييداً لرأيهم .

(٤) ومن مظاهر الفلسفة الهندية عندهم فكرة التناسخ ، فإنه لما خاف الجنى أن يغلب الناسُ الحيَوانَ بفصاحتهم قال ملك الجن . « تصير هذه البهائم فى الاسر والعبودية إلى أن يقتضى دور القرن ، ويستأنف نشء آخر

---

(١) ص ٧٠ ، ٧١ . (٢) ص ٥٨

(٣) خلاصتها : عالم الأشياء الذى يحيط بنا انما يصور عالما آخر قوامه فيكار عقلية فكل شىء هنا شبيح لفكرة هناك . قصة الأدب ج ١ ص ٢٤٦ .

ويأتى الله بالفرج والخلاص . . . فإن أيام هذه الدنيا دول بين أهلها ، تدور بإذن الله وسابق علمه ونفاذ مشيئته ، بموجبات أحكام القرانات والادوار فى كل ألف سنة مرة ، أو فى كل اثنى عشر ألف سنة مرة ، أو فى كل ست وثلاثين ألف سنة مرة ، أو فى كل ثلثمائة وستين ألف سنة مرة ، أو فى كل يوم مقداره خمسون ألف سنة مره (١) . »

وهذه شبيهة شبها ما بما قال به الوذبون من انتقال الارواح وترقيها فى الابدان حتى تصل إلى الاندماج فى الله (٢) .

(٥) يرى إخوان الصفاء تفضيل الناس على غيرهم من المخلوقات بالعقل ؛ إذ جاء على لسان رسول التنين « ليس يفتخر بنو آدم بشىء من هذه » — يقصد الضخامة والقوة والغلبة — ولكن برجحان العقول وفنون العلوم وغرائب الآداب ، ولطائف الحيل ، ودقة الصنائع والفكر والتمييز والروية وذكاء النفوس (٣) .

(٦) يرون أن الإنسان ، على الرغم من امتيازه بالعقل والشرائع ، قد حاد عن الصراط المستقيم بسبب سوء انتفاعه بالعقل والشرائع ، وبسبب أنه ترك أخلاق الملائكة ، وتخلق باخلاق الشياطين (٤) .

(٧) وقد عابوا على الناس كثيراً من صفاتهم وأعمالهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الحيوان . وعابوا عامتهم وخاصتهم . فقد عابوا العلماء والفقهاء والقضاة من بنى آدم على لسان النمر إذ قال للأسد (٥) : « ولكن أرى أن العلماء والفقهاء والقضاة من بنى آدم قد تركوا هذه الطريقة التى قلت إنها أخلاق الملائكة ، وأخذوا فى ضروب من الشياطين ، من المكابرة والمغالبة والتعب والبغضاء فيما يتناظرون ويتجادلون ، من الصياح

---

(١) ص ٣٦ . (٢) قصة الأدب فى العالم ج ١ ص ٦٣ .
(٣) ص ٤٨ (٤) ص ٦٥ وغيرها . (٥) ص ٢٣

والجلبة والشناعة . وهكذا نجد فى مجالس القضاة والحكام ، يفعلون ماذكرت وتركوا استعمال الأدب والعدل والنصفة . »

ويفسر مساكنة الكلاب لبنى آدم بان ذلك « راجع إلى مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق . . . . وما فى طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل وماشاكلها من الاخلاق المذمومة الموجودة فى بنى آدم مما السباع عنه بمعزل [١] . »

وشمل نقدهم للانسان طعامه وشرابه ومساكنه وتعدد ملوكه [٢] . وقد عرضوا فى كتابهم لبيان واجبات الملك [٣] وحقوقه على الرعية [٤] .

(٨) أما أسلوب الكتاب فجلى غالبا ويستخدم براهين الفلاسفة والفاظهم عامة ، كما يستخدم عبارات الدين وأقوال الصالحين وأساليب الواعظين . ويتكلم على لسان الخطباء باساليب الخطب ، وعلى لسان الحكماء بأساليب الحكم وبراهين العقل والمنطق ، وهو فى كل ذلك صافى العبارة جيد الأسلوب بعيد عن التكلف والزخرف . وما جاء من ذلك فيه مقبول

(٩) أما اختيار الحيوان والجن والانس للمناظرة والجدل والحكومة ؛ فأراه شيئا قصده إخوان الصفا لذاته ، كى يبينوا آراءهم فى هذه المخلوقات ، وأصلها ومنتهاها وصلة بعضها ببعض ، وحكمة الله فى خلقها على صورها التى هى عليها . الخ

ولكنهم بجانب ذلك يلحقون الحيوان والجن بعيوب الناس ، وإساءة بعضهم إلى بعض ؛ كما يسيئون إلى الحيوان والجن . وانهم لو تفكروا فى هذه المخلوقات التى يرونها أقل منهم ، ونظروا فيما يسودها من وئام ، وما تسير عليه فى حياتها من نظام ، وما لها من أخلاق صالحة ، وفوائد عظيمة ، وأتبعوا النظر بالتقليد والعمل ، لصلحت حالهم ورغدت معيشتهم .

---

(١) ص ٣٤ (٢) ص ٧٣ (٣) ص ٧٣ (٤) ص ٧٤